الهدايا وأثرها في الأندلس خلال العصر الأموي
(١٣٨-٤٢٢هـ/٧٥٥-١٠٣١م)

د. علي سليمان محمد
أستاذ مساعد بكلية الآداب
جامعة المنوفية

ملخص البحث:

تناول هذا البحث: الهدايا وأثرها في الأندلس خلال العصر الأموي من خلال ثلاث نقاط رئيسة هي؛ الهدايا المتبادلة بين الدولة الأموية في الأندلس والدولة البيزنطية وأمراء المغرب، وأمراء الممالك الأسبانية شمالي الأندلس، ثم الهدايا المقدمة من كبار رجال الدولة إلى الأمويين، وأخيرا أثر الهدايا في الأندلس، حيث كانت المصالح الدولية هى التي حركت الدولة البيزنطية لمد أواصر التحالف مع الدولة الأموية في الأندلس منذ عصر الأمير عبد الرحمن الأوسط، وضح دور الهدايا المتبادلة في تحسين هذه العلاقات.

لكن الهدايا المقدمة من كبار رجال الدولة أبرزتها المصادر وفي مقدمتها المقتبس لابن حيان، مثل: هدية أحمد بن عبد الملك ابن شهيد الذي قدمها للخليفة عبد الرحمن الناصر، فاقت التصور نوعا وعددا، مما أثار حولها تساؤلات كثيرة حول مغزاها ومعناها، وهدية جعفر المصحفي الذي حاول محاكاة هدية ابن شهيد، وبعدهما هدايا المنصور محمد بن أبي عامر للسيدة صبح زوج الخليفة الحكم المستنصر ، ويبدو من خلالها أن دوافعها سياسية لتحقيق مصالح خاصة وهو ما تأكد فيما بعد.

كان لهذه الهدايا أثر كبير في الأندلس التي كانت ملتقى لحضارت مشرقية إسلامية ولاتينية مسيحية، في التلاقح الحضاري في كثير من أوجه الحياة، مثل الناحية العلمية والاجتماعية وتطور فن البناء والزخرفة وصناعة الملابس والطراز، كما كانت تعبيرا عن روح العصر وطبيعة الحكام واهتماماتهم، مثل الهدايا التي تلقاها الخليفة عبد الرحمن الناصر من الامبراطور البيزنطي قسطنطين السابع، والتي اشتملت على كتب علمية مهمة أسهمت في النهضة العلمية في الأندلس، والهدايا المقدمة من الخليفة الحكم المستنصر لاردنيو الرابع الليوني الوافد على بلاط قرطبة، طالباً العون لاسترداد عرشه، والتي اشتملت على بعض الأسلحة والمعدات الحربية، مما يوحي بقوة الأندلس وتفوقها على الممالك الأسبانية خلال هذه الفترة.

Abstract

Impact of Gifts in Umayyad Andalusia

(138-422 AH *Anno Hegirae*/ 755-1031)

Gifts had an important role in history, for their impact on the spirit of the recipient towards the gift-giver. This used to reflected on the relationship between them. Hence, the present paper is interested in studying the gifts given to the Umayyads in Andalusia, their impact on scientific and social life. The first source of gifts used to be from outside Andalusia; such as those of the Byzantines; which were prominent in their diplomatic relations, and the gifts of the kings of the Spanish kingdoms of northern Andalusia. The second source was the various gifts of the princes of the Maghreb to the Umayyads, including the finest of Morocco's rarities that gained admiration in Andalusia. Add to this gifts given by some senior statesmen, such as the gift of Ibn Shohid to Caliph Abdel-Rahman Al-Nasser. The quality and contents of gifts had special connotations, sometimes indicating amicability and friendship, or threat. They reflected the spirit of the age and interest of the Umayyads in various matters, having a clear impact in Andalusia, scientifically and socially.

Keywords: Gifts - Umayyads - Andalusia - Ibn Shohid - Abdel-Rahman Al-Nasser

مقـــدمـــة:

بديهي أنَّ تبادل الهدايا كان تقليدًا عريقًا في التاريخ قديمًا وحديثًا سواء في إطار العلاقات بين الأفراد والجماعات داخل مجتمع ما، أم بين الدول وبعضها البعض، يقول الله تعالى على لسان بلقيس ملكة سبأ: "وإني مرسلة إليهم بهدية فناظرة بم يرجع المرسلون"، وورد أيضًا" بل أنتم بهديتكم تفرحون[١]" ومن هنا تتضح أهمية الدور الذي تلعبه الهدايا على مستوى العلاقات السياسية والاقتصادية والاجتماعية، داخليًا وخارجيًا لما لها من تأثير على نفسية المتلقي والإحساس بالامتنان لمن هاداه، من هذه الزاوية، فإن الهدايا المتبادلة في الأندلس خلال العصر الأموي الذي يمثل بحق عصر الزعامات السياسية والدينية سواء في الشرق أو الغرب، لها آثار مهمة على الحياة عامة، ورغم أهميته إلا إنه لم يحظ بالدراسة على حد علمي، رغم توافر المادة التي يمكن استغلالها وتوظيفها بيد إنها مشتتة في بطون المصادر المتنوعة.

نتناول هذا الموضوع من خلال الهدايا التي تخص الأمراء والخلفاء الأمويين الأندلسيين سواء من خارج الأندلس أو من كبار رجال دولتهم، وأثر ذلك في الأندلس، وذلك في **ثلاث نقاط رئيسة هى:**

أولا : الهدايا المتبادلة بين الدولة الأموية الأندلسية وغيرها من الدول.

ثانيا: الهدايا المقدمة من كبار رجال الدولة إلى الأمويين.

ثالثا: أثر الهدايا في الأندلس.

---

[١] سورة النمل من آية ٣٥، ٣٦.

تعريف الهدية:

لغـــة: أهديت للرجل بعثت إليه إكرامًا، وتهادى القوم أهدى بعضهم إلى بعض[١].

اصطلاحًا: تعرف الهدية إجمالا بأنها إعطاء المرء جزءًا من ماله، أو مما يمتلك لغيره إكرامًا بلا شرط ولا عوض، وهى مستحبة حث عليها الإسلام فعن أبي هريرة τ قال: قال رسول الله ρ: تهادوا تحابوا[٢]" وكان صلى الله عليه وسلم يقبل الهدية، وكانت من أمارات نبوته مثل هدايا المقوقس والي مصر البيزنطي؛ لأنه أقر بنبوته ولم يكذبه وغيرها.

أولاً: الهدايا المتبادلة بين الدولة الأموية الأندلسية وغيرها من الدول

أ) الهدايا بين الدولة الأموية والدولة البيزنطية

تملي المصالح السياسية والاقتصادية على زعماء البلاد –في كل زمن – البحث عن حلفاء والدخول في معاهدات للتمكن من مواجهة المواقف والأوضاع الدولية، ولاشك أن قوة الدولة الأموية في الأندلس حملت الدولة البيزنطية على الأخذ بزمام المبادرة بالسعي لطلب ودها وعقد معاهدات الصداقة معها، كما وضَّح ذلك ابن حَيَّان[٣]– حامل لواء التاريخ في الأندلس– بقوله:" كان ثيوفيلوس

---

[١] الأصفهاني: المفردات في غريب القرآن، الجزء الأول، تحقيق، مركز الدراسات بمكتبة نزار مصطفى الباز، القاهرة، طبعة الباز، ص٧٠٤، أحمد بن محمد بن على الفيومي المقرىء: المصباح المنير، مكتبة لبنان، بيروت،١٩٨٧، ص٢٤٣.

[٢] البخاري: الأدب المفرد، تحقيق، محمد فؤاد عبد الباقي، المطبعة السلفية، القاهرة، ١٣٧٥هـ، ص١٥٥، رقم٥٩٤. لكن النبي صلى الله عليه وسلم لم يقبل هدية مشرك محارب له، فقد رد هدية من عامر بن مالك –ملاعب الأسنة –وقال: إني لا أقبل هدية مشرك، للمزيد، أبو عبيد القاسم بن سلام: كتاب الأموال، تحقيق، محمد عمارة، دار الشروق، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٨٩، ص٣٤٥–٣٤٨.

[٣] السفر الثاني من كتاب المقتبس، تحقيق، محمود مكي، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات، الرياض، الطبعة الأولى، ٢٠٠٣، ص٤٣١–٤٣٢.

Theophlius[١](٨٢٩-٨٤٣م) أول من مد ذلك الحبل بينه وبين ملوك الأندلس، واستجاز فيه خطة الابتداء التي يلوذ منها الجبابرة"، فقام بإرسال بعثة دبلوماسية إلى الأمير عبد الرحمن الأوسط (٢٠٦-٢٣٨هـ/٨٢٢-٨٥٢م) سنة ٢٢٥هـ/٨٤٠م راغبًا في التحالف معه ضد الخلافة العباسية عدوهما المشترك"، ورأس هذه السفارة "كراتيوس" kartiyus، مترجمه الخاص، وأحد أهم رجال القصر[٢].

من الجدير بالذكر حرص الأمويين في الأندلس على اتباع تقاليد ثابتة عند استقبال السفراء والرسل وهداياهم، وهو ما يمكن أن نطلق عليه "البروتوكول" في أيامنا الحالية، فعند وصول السفارة كان يتم استقبالها استقبالاً رسميًّا من استعراض للجند وحضور كبار رجال الدولة، ويصل السفير إلى قصر الأمير أو الخليفة الأموي ويؤدي التحية الواجبة، ثم يقدم الرسالة التي يحملها من مرسله، ثم يقوم الحاجب بالحديث مع الأمير أو الخليفة مخاطبًا إياه عن السفير أن الملك الذي أرسله قد بعث معه هدية خاصة به، وأنه يلتمس منه قبولها، فإن وافق على قبولها تُحضر إلى مجلسه وتعرض محتوياتها عليه[٣].

---

[١] ثيوفيلوس Theophilus تولى الحكم بعد وفاة أبيه ميخائيل العاموري وحكم من ٨٢٩-٨٤٣م وسار على سياسة أبيه في حرب عبادة الأيقونات، عاملهم كوثنيين، رغم تحمس زوجته الثانية تيودورا لعبادة التماثيل، وأبرز ما تميز به عهده تشجيعه للعلم والعلماء وظهور نهضة علمية وفنية في عهده، نتيجة تأثرها بالحضارة الإسلامية في بغداد، وتوفي عام ٨٤٣م وتولى بعده ابنه ميخائيل الثالث تحت وصاية أمه تيودورا. جوزيف نسيم يوسف: تاريخ الدولة البيزنطية، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ٢٠٠٥، ص١٤١-١٤٢.

[٢] ابن حيان: السفر الثاني من المقتبس، تحقيق، محمود مكي، ص٤٣١-٤٣٢، ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، الجزء الرابع، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة،٢٠٠٧، ص١٣٠، المقري: نفح الطيب، المجلد الأول، تحقيق، إحسان عباس، دار صادر، بيروت،١٩٨٨، ص٣٤٦-٣٤٧.

Anthony Cutler: Gifts and Gift Exchange as Aspects of the Byzantine, Arab, and Related Economies, Dumbarton Oaks Papers, Vol. 55, 2001,http:// www.jstor.org/ stable p. 247-278.

[٣] محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، الجزء الثاني، مكتبة الأسرة، القاهرة، ٢٠٠١، ص ٤٥٢-٤٥٥،

من قواعد هذا البروتوكول حين عودة السفراء إلى بلادهم بعد انتهاء مهمتهم، يقوم الأمير أو الخليفة بإرسال مبعوثين من قبله لحمل هداياه ردًّا على الهدايا التي وصلته، وقد يسافر هؤلاء بصحبة الرسل العائدين إلى بلادهم ليقوموا بتقديم هذه الهدايا نيابة عن مرسلهم[١]، أو بعد ذلك بمدة يسيرة.

قبل الأمير عبد الرحمن الأوسط الهدية التي وصفها ابن حَيَّان[٢] وصفًا مجملاً "بأنها هدية حسنة ذات ألطاف مونقة"، -ولعلها كانت كثيرة وضخمة-، للتأثير في نفسية الأمير عبد الرحمن الذي أعجب بها وافتخر بما فيها، لكن لم ترد تفاصيل عن محتوياتها، مثل التفاصيل الدقيقة عن الهدايا التي قدمها رجال الخاصة إلى الخلفاء والتي سيرد عنها الحديث لاحقًا، فهل احتوت على كتب أو أعمدة رخامية أو مواد أخرى استعملت في بناء مسجد قرطبة أو غيره، كما نلحظ في سفارات قادمة[٣]، وطبقًا للقواعد المتبعة قام الأمير الأموي بعد انتهاء مهمة السفارة بالرد على رسالة الإمبراطور وهديته بإرسال يحيي الغزال[٤] شاعر الأندلس وحكيمها وعرافها،

---

[١] سليمان الرحيلي: السفارات الإسلامية إلى الدولة البيزنطية، مكتبة التوبة، الرياض،١٤١٤هـ، ص١٣٩-١٤٠.

[٢] السفر الثاني من المقتبس، تحقيق، محمود مكي، ص٤٣١-٤٣٢.

Anthony Cutler: Gifts and Gift Exchange as Aspects of the Byzantine, Arab, and Related Economies,p 247.

[٣] عبد الرحمن الحجي: العلاقات الدبلوماسية بين الأندلس وبيزنطة، صحيفة المعهد المصري للدراسات الإسلامية في مدريد، العدد٢٢، سنة ١٩٨٤م، ص٦٥-٦٦.

[٤] يحيى بن حكم الغزال الجياني، - نسبة إلى جيان - لقب بالغزال لوسامته، لقبه به عبد الرحمن الأوسط ، ينسب إلى قبيلة بكر بن وائل أبطال ذي قار، عاش خمسًا وتسعين سنة وعاصر خمسة من أمراء بني أمية في الأندلس أولهم عبد الرحمن الداخل، وآخرهم محمد بن عبد الرحمن، ولاه عبد الرحمن الأوسط وظيفة أمانة الأهراء، لكنه أسرف في الإنفاق، فسجنه الأمير مدة، ثم عفا عنه، قيل له رحلة إلى المشرق لكن إحسان عباس يشكك فيها. ابن حيان: السفر الثاني من المقتبس، تحقيق، محمود مكي، ص٢٤٣، الحميدي: جذوة المقتبس، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٨، ص٣٧٤-٣٧٥، ابن دحية: المطرب من أشعار أهل المغرب، تحقيق، إبراهيم الإبياري وآخرون، دار العلم للجميع، بيروت، لبنان، بدون، ص١٣٣-١٣٧، المقري: نفح الطيب، المجلد الثاني، ص٢٥٤-٢٥٩، محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام =

ت٢٥٠هـ/٨٦٤م الذي توافرت فيه الشروط الواجب توافرها في السفير[١]، مع يحيى رفيقه – أحد علماء الأندلس المبرزين في العلوم التطبيقية – الملقب بالمنيقلة[٢]، حاملاً ردَ أميره وهديته القيِّمة التي وصفها ابن حيَّان أيضًا[٣] بأنَّها أعلى قيمة وأحسن من هدية تيوفيل"، وإن كنا لا نعرف تفاصيلها، لكنها كانت غنية، حوت شيئًا كثيرًا مما امتازت به الأندلس آنذاك، أمورًا ثمينة تتحف الإمبراطور وتدعوه إلى الفرح[٤]، واستقبل

= في الأندلس، الجزء الثاني، مكتبة الأسرة ، القاهرة، ٢٠٠١، ص٢٥٣، إحسان عباس: تاريخ الأدب الأندلسي عصر سيادة قرطبة، دار الثقافة، بيروت، الطبعة الثالثة،١٩٦٩، ص١٥٧–١٦٧، محمد صالح البنداق: يحيى بن الحكم الغزال، دار الآفاق الجديدة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٩، ص٨٠١٧–٢٥، عمر فروخ: تاريخ الأدب العربي، الجزء الرابع، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، ١٩٨٤، ص١١٥–١٢٠.

Joaquin Guichot: Historia de Andalucia ,tomo11,Madrid, 1869,pp220–225

١ منها: العلم والبلاغة والفهم، وضوح الصوت حسن المنظر، قال الحكماء: الرسول من المُرسِل،" والرسالة يد والرسول لسان" ابن الفراء: كتاب رسل الملوك ومن يصلح للرسالة والسفارة، تحقيق، صلاح الدين المنجد، دار الكتاب الجديد، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٩٩٣، ص٣٣–٣٨، محمد صالح البنداق: يحيى بن الحكم الغزال، ص١٧–٢٦، لم تكن السفارة في ذلك الوقت وظيفة وإنما كانت مهمة يكلف الأمير أو الخليفة بها من يريد وتنتهي بانقضاء المهمة. حسين مؤنس: غزوات النورمانيين على الأندلس وسفارة يحيى الغزال إلى ملك النورمان، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، القاهرة، العدد الأول، المجلد الثاني،١٩٥٠، ص٥٢–٥٥.

٢ لم أعثر له على ترجمة منفردة إلا ما ذكره عنه ابن حيان من أنه صحب الغزال ولما ركبا البحر وهاج عليهما خاف المنيقلة خوفًا شديدًا واسترجع، وقال ألقينا والله بأيدينا إلى التهلكة، وأرسل الغزال رسالة إلى الأمير عبد الرحمن بعد أن ركبا البحر يوصيه فيها بأسرته وأسرة المنيقلة خيرًا، وأن يتعهدهما بالإنفاق عليهما، ولم يذكر عنه شيئا في لقائه بالإمبراطور، ولم يسلم من هجاء الغزال له ونمه في أشعاره، وعادا من سفارتهما مسرورين بهدايا وألطاف حسنة، ووجدا أهلهما في سلامة وعافية. ابن حيان، السفر الثاني من المقتبس، تحقيق، محمود مكي، ص٣٥٠–٣٦٦.

٣ السفر الثاني من المقتبس، تحقيق، محمود مكي، ص٤٣١–٤٣٢، السيد عبد العزيز سالم: قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس، الجزء الأول، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ١٩٩٧، ص ٦٥.

٤ عبد الرحمن الحجي: العلاقات الدبلوماسية بين الأندلس وبيزنطة، ص٦٦.

الإمبراطور البيزنطي[١] الغزال استقبالا حافلا، وبالغ في إكرامه، وأعجب بفصاحته وبلاغته وذكائه، وقُرئت رسالة الأمير على الإمبراطور فاستحسنها– أورد ابن حيان نصها[٢]– ثم أذن بإحضار هدايا الأمير، فقدمت له وفتحت الصناديق أمامه، ووقف على جميع ما اشتملت عليه من الثياب والأواني، فسُر وأعجب بها أيما إعجاب[٣]، ثم عاد الغزال إلى قرطبة بعد أن أتم مهمته محملاً بالهدايا والتحف لتقديمها لأميره، غير هداياه الشخصية التي أتحفه بها الإمبراطور وزوجته[٤]، وتُعدْ سفارة الغزال هذه حادثًا

---

١ كانت الدولة البيزنطية متفوقة عسكريًا، بل كانت بلدًا تدرس فيه أدوات القتال، كما برعت أيضًا في مجال الدبلوماسية حتى أصبح علمًا له قواعده. للمزيد، رأفت عبد الحميد محمد: قواعد الدبلوماسية البيزنطية، مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، القاهرة، العدد ٣٣، ص ٢٩–٨٢.

٢ السفر الثاني من المقتبس، تحقيق، محمود مكي، ص٤٣٢–٤٣٥. علق بروفنسال قائلا: إنها آية رائعة من آيات الدبلوماسية الأندلسية فهى حافلة بعبارات المجاملة الرقيقة، ولكن بغير التزام من جانب الدولة الأموية بأي شيء لا في الحاضر ولا في المستقبل. تعليق محمود مكي رقم١٥١، ص ٥٦٧–٥٦٨.

٣ ابن دحية: المطرب من أشعار أهل المغرب، ص١٤٥–١٥٠.

٤ ابن حيان: السفر الثاني من المقتبس، تحقيق، محمود مكي، ص٣٦٥–٣٦٦، ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، الجزء الرابع، ص١٣٠، المقري: نفح الطيب، المجلد الأول، ص ٣٤٦–٣٤٧، المجلد الثاني، ص٢٥٤–٢٥٧. كان لنجاح الغزال في سفارته تلك أن كلف بسفارة ثانية إلى ملك النورمان في الشمال(الدانمرك) عام٢٤٠هـ، بعد هجوم النورمان على سواحل الأندلس الغربية، لكن بروفنسال نفي هذه الرواية وقال إنها من نتاج الخيال. حضارة العرب في الأندلس، ترجمة ذوقان قرقوط، دار مكتبة الحياة، بيروت، بدون، ص ٨٧، وأيده محمود مكي في تعليقه رقم١٤٨، ص٥٦٧ على نص ابن حيان، لكن أثبت بعض المؤرخين أنهما سفارتان وليستا واحدة، وأنها رواية صحيحة موثقة واقعية، حسين مؤنس: غزوات النورمانيين على الأندلس، ص٤٢–٥٠، إحسان عباس: تاريخ الأدب الأندلسي، عصر سيادة قرطبة، ص١٥٧–١٦١، بالنثيا: تاريخ الفكر الأندلسي، ترجمة حسين مؤنس، المركز القومي للترجمة، القاهرة،٢٠١١،ص٧٧، عبد الرحمن علي الحجي: العلاقات الدبلوماسية بين الأندلس وأوربا الغربية خلال عصر الدولة الأموية، المجمع الثقافي، أبو ظبي، الإمارات، ٢٠٠٤م، ص٢٦٧، محمد ماهر حمادة: الوثائق السياسية والإدارية في الأندلس وشمالي إفريقية، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، ١٩٨٦، ص٣٨–٣٩، إبراهيم آل محمد مصطفى: سفارات الأندلس إلى ممالك أوربا المسيحية الكاثوليكية، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، الطبعة الأولى،٢٠١٣، ص١٢٠–١٣٥، عبد القادر زمامة: يحيى بن حكم الغزال، مجلة المناهل المغربية، العدد الرابع،١٩٧٥، ص١٤٩، حكمة على الأوسي: يحيى بن حكم الغزال، سفير الأندلس وشاعرها الواقعي، المجمع العلمي العراقي، بغداد،١٩٧١، ص١٩٦–٢١٣.

طريفًا في تاريخ الإمارة الأموية في الأندلس، بل وفي تاريخ السفارات الإسلامية عامة[١].

تطورت العلاقات بين قرطبة والقسطنطينية ووصلت إلى أوْجها في عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر (٣٠٠-٣٥٠هـ/٩١٢-٩٦١م) الذي بلغت الأندلس في عهده ذروة مجدها، فكان ملوك أوربا يهابونه ويلطفونه بالهدايا، ففي عام ٣٣٧هـ[٢]/٩٤٩م وصلت إلى قرطبة سفارة من قسطنطين السابع (الأرجواني[٣]) ٩١٣-٩٥٩م تحمل طائفة من الهدايا النفيسة، واستقبلهم الخليفة في الزهراء استقبالاً ملكياً لإظهار عظمته، مما يلقي الضوء على النظم والتقاليد الدبلوماسية المتبعة في ذلك العصر[٤].

---

[١] حسين مؤنس: غزوات النورمانيين على الأندلس وسفارة يحيى الغزال إلى ملك النورمان، ص٦٣.

[٢] اختلف في تحديد تاريخها في ٣٣٦هـ أو ٣٣٧هـ، و٣٣٨هـ، قال المقري والله أعلم أيهما أصح. للمزيد: ابن عذاري: البيان المغرب، الجزء الثاني، تحقيق بشار عواد وابنه محمود، دار الغرب الإسلامي، تونس، الطبعة الأولى،٢٠١٣، ص٢١٣، ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، الجزء الرابع، ص١٤٢، المقري: نفح الطيب، المجلد الأول، ص٣٦٦، أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض، الجزء الثاني، تحقيق، مصطفى السقا وآخرون، مطبعة لجنة والتأليف والترجمة والنشر، القاهرة،١٩٤٠، ص٢٥٨-٢٦٠. يذكر محمد عنان أنه لم يعثر في تواريخ الدولة البيزنطية على تفاصيل هذه السفارة، ولكن الرواية الإسلامية واضحة جلية. دولة الإسلام في الأندلس، الجزء الثاني، ص٤٥٢، هامش١.

[٣] لأنه ولد في الأرجوان، تولى الحكم صغيرًا في السابعة من عمره تحت وصاية مجلس من الأوصياء كان أشهرهم رومانوس الأول ليكابنيوس Lecapenus الذي زوجه من بنته لتحقيق أطماعه في الحكم، لكن تمكن قسطنطين من ممارسة الحكم بمفرده عام ٩٤٤م، وأهم ما اشتهر به حبه للعلم والعلماء، فضلًا عن أنه كان عالمًا، وله مؤلفات قيمة منها: "كتاب الأقاليم" تحدث فيهه عن ولايات الدولة وحدودها وعدد سكانها ومواردها، وأطول مؤلفاته كتاب" مراسم القصور" تحدث فيه عن قواعد المعاملة في البلاط، وكل ما يتعلق بالحياة داخل القصر ماليًّا واجتماعيًّا ورسميًّا، وصف بأنه المؤرخ الإمبراطوري. جوزيف نسيم: تاريخ الدولة البيزنطية، ص١٥٢-١٥٥.

[٤] ابن جلجل: طبقات الأطباء والحكماء، تحقيق، فؤاد سيد، دار الكتب، القاهرة، ١٩٥٥، مقدمة المحقق، ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، الجزء الرابع، ص١٤٢-١٤٣، المقري: نفح الطيب، المجلد الأول، ص٣٦٦، بروفنسال: تاريخ أسبانيا الإسلامية، المجلد الثاني الجزء الأول، ترجمة على إبراهيم منوفي وأخرون، المشروع=

يهمنا من هذه السفارة الهدايا التي حملتها فهي فريدة في بابها تعبر عن روح العصر في ذلك الوقت في كل من بيزنطة وقرطبة[١]، منها كتابان جليلان من كتب القدماء أحدهما نسخة مصورة أبدع تصوير من كتاب ديسقوريدس[٢] "مصور الحشائش بالتصوير الرومي العجيب" وكان مكتوبًا باللغة اليونانية" الإغريقية" والثاني نسخة من كتاب أورسيوس "هروشيش"، وهو كتاب في التاريخ وكان مكتوبًا باللغة اللاتينية، فيه أخبار عن التاريخ القديم وقصص الملوك الأُوَل وفوائد عظيمة، وفي بطاقة وصف لهدايا الإمبراطور للخليفة وعددها[٣]، وأوضح الإمبراطور أن كتاب ديسقوريدس لا تُجنَى

= القومي للترجمة، القاهرة، ٢٠٠٢، رقم٣٢١، ص٣٣، السيد عبد العزيز سالم: قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس، الجزء الأول، ص٦٧، حسان حلاق: دراسات في تاريخ الحضارة الإسلامية، دار النهضة العربية، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٦٩، ص٣٢٠.

[١] كانت الدولة البيزنطية تعيش أيضًا في عهده أوج مجدها الحضاري، وكان هذا الإمبراطور شغوفا بالعلم والتاريخ قضى خمسة وعشرين عاما في مطالعة الكتب ولعل اتصاله بالخلافة الأموية في الأندلس تم في هذا الإطار الثقافي، للمزيد، أسد رستم: الروم في سياستهم وحضارتهم ودينهم وثقافتهم وصلتهم بالعرب، الجزء الثاني، دار الكشوف، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى،١٩٥٦م، ص٢٦-٢٨، إبراهيم بيضون: تاريخ الدولة العربية في أسبانيا، دار النهضة العربية، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٩٨٦، ص٢٩٤-٢٩٦.

M . Florian : History of the Moors spain ,New York,franklin square , 1852,p 64-65

[٢] Dioscorides معناه باليونانية ملهم الله للشجر والحشائش طبيب وكيميائي يوناني عاش في القرن الأول الميلادي اشتهر بكتابه عن مركبات الأدوية، وهو ما يزال يعتبر ذا قيمة علمية حتى عصرنا، وكان يعتبر حتى القرن السابع عشر أثمن مرشد لخواص الأعشاب الطبية، وكان من أهم كتب اليونان في فوائد الأدوية موضحًا بشروح وافيه وصور للحشائش واستخدامها، تنقل كثيرًا في البلاد بحثًا عن النباتات والنظر فيها وفي منابتها. للمزيد، ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، نشر، نزار رضا، دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، ص ٨٥-٥٩، ابن جلجل: طبقات الأطباء والحكماء، ص٢١، ابن البيطار: أبو محمد عبد الله بن أحمد بن محمد ت ٦٤٦هـ/١٢٤٨م): تفسير كتاب دياسقوريدوس، تحقيق، إبراهيم بن مراد، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى،١٩٨٩م، ص٢٤-٤٤، حسن نافعة وبوزورت: تراث الإسلام، الجزء الثاني، ترجمة حسين مؤنس، عالم المعرفة، ١٩٩٨، الكويت، ص٢٨٩-٢٩٠، هامش١.

[٣] ابن عذاري: البيان المغرب، الجزء الثاني، ص٢١٣، المقري: نفح الطيب، المجلد الأول، ص٣٦٧.

فائدته وتُعرف قيمته إلا بشخص يجيد اليونانية، فأرسل إلى قرطبة الراهب نيكولا Nicola عام٣٤٠هـ/ ٩٥٢م الذي شكل لجنة علمية من أطباء قرطبة لترجمة الكتاب وشرح محتوياته لهم، مما كان له أثره الكبير في تقدم علم الطب في الأندلس[١]، كما سنوضح فيما بعد، أما كتاب تاريخ أورسيوس فترجم لسهولة لغته، مما كان له أثره الكبير أيضًا في الحياة العلمية عامة، ثم رد الخليفة عبد الرحمن الناصر عليها بسفارة تحمل هديته يرأسها هشام بن هذيل، وكانت هدية حافلة ليؤكد المودة ويحسن الإجابة ويوثق عُرى الصداقة والتحالف بينهما[٢]، ولا تفيدنا المصادر حول محتوى هذه الهدية، وإن كان الظن أنها مخطوطات وكتب قيمة إلى الإمبراطور العالم[٣].

على أية حال، تعد هدية الإمبراطور للخليفة قيمة، وتدل على اهتمام الإمبراطور بالعلم والمعرفة، تعبر كذلك عن مدى حب الخليفة عبد الرحمن الناصر للعلم والكتب وشغفه بها والتي بلغت الآفاق، فوصلت إلى بلاط بيزنطة فرأى الإمبراطور أن يستميله بأحب شيء إلى قلبه، كتابًا جديدًا، مما يوحي بارتباط نوع الهدية بالشخصية المرسلة إليها، وربما المناسبة المقدمة فيها[٤].

---

[١] ابن جلجل: طبقات الأطباء والحكماء، مقدمة المحقق، بالنثيا: تاريخ الفكر الأندلسي، ص ٥١٩-٥٢١، بابل ودي جينفنوا: مكتبة الأسكندرية فك طلاسم اللغز، ترجمة على إبراهيم منوفي، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ٢٠١٤، ص٢٥١-٢٥٢.

[٢] المقري: نفح الطيب، المجلد الأول، ص ٣٦٤-٣٦٥، أحمد مختار العبادي: تاريخ المغرب والأندلس، مؤسسة الثقافة الجامعية، الإسكندرية، بدون، ص٢٦٥.

[٣] إبراهيم بيضون: الدولة العربية في أسبانيا، ص٢٩٤-٢٩٦، خليل السامرائي وآخرون: تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس، دار الكتاب الجديد، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠٠، ص١٧٥.

[4] **Anthony Cutler: Gifts and Gift Exchange as Aspects of the Byzantine, Arab, and Related Economies,p249-250.**

ب) الهدايا بين الأندلس والممالك النصرانية في الشمال

اتسمت العلاقات بين الأندلس والممالك النصرانية خلال هذه الفترة بالعداء والحروب المستمرة، تخللتها فترات من الهدنة، توصل فيها الطرفان إلى عقد معاهدات السلم والصلح المؤقت، وتم خلال ذلك تبادل بعض الهدايا بينهما ومن أشهرها:

سنة ٣٤٧هـ/٩٥٨م استقبل الخليفة عبد الرحمن الناصر في قصره في الزهراء استقبالاً ملكياً طبقا للقواعد المقررة، الملكة النافارية طُوطَة Toda ووفدها المكون من كبار رجال مملكتها منهم حفيدها سانشو السمين sancho the fat طالبة منه المساعدة العسكرية والطبية، مقابل الدخول في طاعته وتسليم بعض الحصون له، وإطلاق سراح الأسرى، وقبل منها الخليفة ذلك ووعدها بتلبية طلبها، وتم خلال ذلك أن قدمت له هدية حسنة فقبلها الخليفة وكافأها عليها عند مغادرتها بأحسن منها، بل وقدم هدايا وخُلَع لكل رجال الوفد المرافقين لها مما أسعدهم وأبهجهم[١].

ترتب على سفارة الملكة طوطة حضور أردونيو الرابع Ordono 1v ملك ليون والمخلوع عن عرشه إلى قرطبة، وذلك عام ٣٥١هـ/٩٦٢م طالبًا العون من الخليفة الحكم المستنصر لاسترداد عرشه جاء بصحبة القائد غالب الناصري[٢] –قائد جيش الثغور– وزار قبر الخليفة الراحل وانحنى أمامه راغبًا استمالة قلب الخليفة الحكم المستنصر، وتم استقباله استقبالاً حاشدًا طبقًا للقواعد المقررة، وعَرضَ قضيته ووعده

---

[١] ابن حيان: المقتبس السفر الخامس، تحقيق، شالميتا، المعهد الأسباني العربي للثقافة، كلية الآداب بالرباط، مدريد، ١٩٧٩، ص٣٣٥، محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، الجزء الثاني، ص٤٥٩.

[٢] فارس الأندلس ذو السيفين عينه الخليفة عبد الرحمن الناصر القائد الأعلى للجيوش الأندلسية، وكان من أبرز شخصيات الموالي المروانيين، لعب دورًا كبيرًا في ميدان الجهاد سواء ضد الممالك الأسبانية في الشمال أو ضد أعداء الدولة الأموية في بلاد المغرب، للمزيد، حمدي عبد المنعم حسين: فارس الأندلس غالب الناصري، مجلة كلية الآداب، جامعة الإسكندرية، العدد ٣٧، ١٩٨٩، ص١١–٤٠.

الخليفة بمعاونته، وانصرف شاكرًا مبهورًا لما رأى من آيات الفخامة والسلطان[١]، وتم تقديم الهدايا له من قبل الحاجب جعفر بن عثمان المصحفي[٢] التي أمر بها الخليفة له ولأصحابه، أورد المقري[٣] بعض التفاصيل حول أصنافها وهى: "دراعة منسوجة بالذهب وبرنس مثلها له لوزة مفرغة من خالص التِبر مُرصعة بالجواهر والياقوت ملأت عينه تَجِلة، كذلك أهدى له ولأصحابه على قدر استحقاقهم".

من الملاحظ أن هذه الهدية ورد فيها ذكر بعض الأسلحة والمعدات الحربية التي تبودلت بين الطرفين، وهو أمر له مغزى مهم أي أن نوعية الهدايا كانت لها لغة خاصة توحي هنا بالقوة والردع، مما تعكسه طبيعة العلاقة بين الطرفين.

---

[١] ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، الجزء الرابع، ص ١٤٥، المقري: نفح الطيب، المجلد الأول، ص ٣٨٩-٣٩٢، محمد عنان: دولة الإسلام في الأندلس، الجزء الثاني، ص ٤٨٤-٤٨٥، عبد الرحمن الحجي: العلاقات الدبلوماسية بين الأندلس وأوربا الغربية، ص ١١٦-١١٧.

Francisco Codera:Embajadores de Castilla encarcelados en Córdoba en los últimos años de Alhaquem I1, Boletín de la Real Academia de la Historia.Madrid, Tomo 14, Año 1889,p 187-193.

[٢] أبو الحسن جعفر بن عثمان بن نصر من بربر بلنسية ينتمي إلى قيس بالمحالفة، ت ٣٧٢هـ، تقرب من الخليفة عبد الرحمن الناصر فولاه حكم جزيرة ميورقة، ثم مؤدب الخليفة الحكم الذي ولاه الوزارة بعد أن تولى الخلافة سنة ٣٥٠هـ، ترقى في المناصب العليا، فقد عينه حاجبًا وخدمة ابنه هشام، وظل جعفر أقرب الشخصيات ومحل ثقة الخليفة الحكم حتى وفاته سنة ٣٦٦هـ، ولعب دورًا مهمًا في بيعة ابنه بالخلافة، فقلده الحجابة حتى علا عليه المنصور محمد بن أبي عامر ونكبه نكبة صارت مضرب الأمثال في التاريخ. ابن حيان: المقتبس تحقيق، شالميتا، ص٤٧، ابن بسام : الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، القسم الرابع، المجلد الأول، ص ٦٤، ابن الآبار: الحلة السيراء، الجزء الأول، ص ٢٥٧-٢٦٧، ابن عذاري: البيان المغرب، الجزء الثاني، ص٢١٥، ٢٦٥، المقري: نفح الطيب، المجلد الرابع، ص ٨٨.

[٣] نفح الطيب، المجلد الأول، ص ٣٩٣، أزهار الرياض، الجزء الثاني، ص ٢٨٨-٢٩٤.

انطلاقًا من قوة الأندلس خلال هذه الفترة وفدت سفارة أمير برشلونة[١] الكونت بوريلBorrel برئاسة القومس بون فلي Bonfill عام ٣٦٠هـ/٩٧١م من أجل تجديد المودة والتحالف القائم بينهما منذ عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر[٢]، حاملين بين أيديهم هديتهم للخليفة من طرائف بلدهم، وهم أشد حرصًا على التودد والتقرب منه، وكانت هذه الهدية تشتمل على ثلاثين أسيرًا من المسلمين ما بين رجل وامرأة وصبي كانوا محتجزين لديه، لعلمه أنَّ ذلك أعظم ما يُسر به الخليفة ويبتهج ويكافئ عليه مع أحمال من ديباج وأسلحة[٣]، وعشرين صبيًا من الصقالبة، وعشرين قنطارًا من الصوف السمور، وخمسة قناطير من القصدير، وعشر أذرع صقلبية، ومائتي سيف إفرنجية، واستقبلهم الخليفة استقبالاً حافلاً وحَسُن موقع الهدية جدًّا من قلبه[٤].

كذلك شملت هذه الهدية أسرى مسلمين وأسلحة ومعدات حربية، وعبيدًا صقالبة ومنسوجات فاخرة، مما يؤكد المعنى السابق في أن للهدية لغة خاصة تعبر عن نوعية

---

[١] Barcelona, مدينة في شرقي الأندلس، غزاها المنصور ابن أبي عامر سنة ٣٧٤هـ/٩٨٥م ودمرها، للمزيد، أحمد مختار العبادي: تاريخ الأندلس لابن الكردبوس ووصفه لابن الشباط نصان جديدان، صحيفة المعهد المصري للدراسات الإسلامية، مدريد، المجلد الثالث عشر، ١٩٦٥-١٩٦٦، ص٦٣-٦٤، الحميري: صفة جزيرة الأندلس، دار الجيل، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٨، ص٤٢-٤٣، ابن حيان: السفر الثاني من المقتبس، تحقيق، محمود مكي، ص١١٦، ٤٧٣ -٤٧٥، تعليق٢٧، حيث يذكر أن هذه المدينة سقطت مبكرا سنة ١٨٥هـ، أثناء صراع الحكم الربضي مع عميه، ومن يومها أصبحت برشلونة عاصمة للثغر الأسباني La Marca Hispanica. ثم تحولت إلى إمارة مستقلة.

[٢] ابن حيان: المقتبس، الجزء الخامس، ص٤٦٩.

[٣] ابن حيان: المقتبس في أخبار بلد الأندلس، تحقيق، عبد الرحمن على الحجي، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ١٩٨٣، ص٢١-٢٢، ونسخة صلاح الهواري، ص١٤-١٥.

Anthony Cutler: Gifts and Gift Exchange as Aspects of the Byzantine, Arab, and Related Economies, p 252.

[٤] المقري: نفح الطيب، المجلد الأول، ص٣٨٤-٣٨٥، ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، الجزء الرابع، ص١٤٥، عبد الرحمن الحجي: العلاقات الدبلوماسية بين الأندلس وأوربا الغربية، ص١٢١-١٢٢، وفاء المزروع: الخليفة الأموي الحكم المستنصر، ماجستير، كلية الشريعة، جامعة أم القرى،١٩٨٣، ص ٥٩-٦٠.

العلاقة بين الطرفين، وهدفها إرسال رسالة محددة لمحاولة الوصول إلى الغرض الذي من أجله قامت العلاقات بين الطرفين، وكيفية التعامل بينهما، وقام الخليفة المستنصر بتقديم عظيم الهدايا والعطايا الجزيلة مكافأة له عن الأسرى الذين أطلقهم وهديته[١].

أما في عصر الحاجب المنصور محمد بن أبي عامر٣٦٧-٣٩٢هـ/٩٧٧-١٠٠١م فَقَلَّت السفارات وبالتالي الهدايا بسبب الحروب التي شنها ابن أبي عامر ضد هذه الممالك، والتي وصلت إلى أكثر من خمسين حملة[٢]، مما كان سببًا في سعى بعض هذه الممالك إلى شراء مهادنته، ولا شك غُلف هذا الهدف بهدايا قيمة متنوعة قدمت له مع المبعوثين، وما يمكن تسجيله مجيء سانشو غرسيه ملك ليون إلى قرطبة سنة٣٧٠هـ/٩٨١م ليقدم له فروض الولاء والطاعة، وقدم إليه ابنته ليتزوجها ابن أبي عامر والتي أسلمت وسميت عبدة، وأنجب منها ابنه عبد الرحمن الملقب بشنجول تصغير شانجة هذا[٣].

في سنة٣٧٤هـ/٩٨٥م مجيء برمودو الثاني Bormodo 11 ملك ليون طالبًا منه العون والمساعدة العسكرية، وأهدى له ابنته كذلك التي اتخذها حظية له، وكان اسمها تريسا teresa، مما يوحي من خلال نوعية هذه الهدايا الرغبة في تقوية أواصر العلاقات الاجتماعية، وتجنب الحرب والقتال، وكسر حدة الحاجب المنصور في حروبه التي أصلى بها هذه الممالك نارًا، ولم تهزم له راية قط[٤]، من أجل ذلك كانت الهدايا وسيلة لشراء السلام والمهادنة منه.

---

[١] ابن حيان: المقتبس، نسخة صلاح الدين الهواري، ص ٢١.

[٢] مجهول: ذكر بلاد الأندلس، تحقيق وترجمة، لويس مولينا، الجزء الأول، مدريد ، ١٩٨٣، ص١٨٥-١٩٥، ابن عذاري: البيان المغرب، الجزء الثاني، ص٢٧٩، على أحمد القحطاني: الدولة العامرية في الأندلس، رسالة ماجستير جامعة أم القرى،١٩٨١، ص١٨٢-٢١٥.

[٣] محمد عنان، دولة الإسلام في الأندلس، الجزء الثاني، ص ٥٨٣-٥٨٤.

[٤] المقري: نفح الطيب، المجلد الأول، ص ٣٩٨، ص ٤٠٣-٤٠٤. بل علق المقري على ذلك بقوله: وإنها لخاصة به ما أحسب أن أحدا من الملوك الإسلامية شاركه فيها. نفح الطيب، المجلد الأول، ص٤٠٧، محمد عنان، دولة الإسلام في الأندلس، الجزء الثاني، ص ٥٨٤-٥٨٥.

يبدو أن تقديم الهدايا عبيدًا من طرف الممالك الأسبانية كان أمرًا طبيعيًّا إما نساء وإما صقالبة فقد قدم أمراء كتالونيا – من الإفرنج– كما أسلفنا مجموعة من الصقالبة إلى المستنصر تقربًا إليه، وكان هؤلاء الصقالبة يحتفظون بعاداتهم وتقاليدهم وثقافتهم، فقد ذكر الطرطوشي[١] "أنهم كانوا يغنون ويرقصون بشكل مغاير لأهل الأندلس"، وكان للصقالبة دور كبير في الحياة الأندلسية، فقد دخلوا الحياة الأندلسية وغالى الأمراء والخلفاء في جلبهم، فزادت أعدادهم حتى وصلت في عهد الناصر إلى ألف وثلاثمائة شخص، وبرز منهم في مجال العلم كثيرون منهم حبيب الصقلبي الذي ألف كتاب الاستظهار والمغالبة على من أنكر فضل الصقالبة[٢]، وغيره

بل كان لهم نفوذ كبير في قصور الخلفاء وذلك لمعرفتهم باللغة العربية إذ فتحت أمامهم الأبواب لنشر ثقافتهم وفكرهم، يؤكد ذلك أحمد أمين[٣] بقوله: "هؤلاء الأرقاء من رجال ونساء لعبوا دورًا كبيرًا في الحياة الاجتماعية الأندلسية، فقد كانوا ينقلون أفكار الأوربيين إذ كان بعضهم من الخاصة، وكانوا ينقلون عادات أممهم وتقاليدهم، ومن تعلم العربية منهم كان ينقل الأفكار والقصص الأوربية إلى العربية".

أما بعد عصر المنصور ابن أبي عامر، فقد اختلت أحوال الدولة الأموية عامة، وقامت الفتنة البربرية في قرطبة خلال الربع الأول من القرن الخامس الهجري، فلم يُرصد تبادل هدايا أو سفارات بين الأندلس وغيرها خلالها.

ج) الهدايا بين الدولة الأموية وأمراء بلاد المغرب

حرص الأمير عبد الرحمن الأوسط على توثيق علاقته الودية مع دولة الرستميين في تاهرت بالمغرب الأوسط، رغم الخلاف المذهبي بينهما، إذ جمعتهما المصالح السياسية والاقتصادية المشتركة، وهي العداء للخلافة العباسية والتبادل التجاري

---

[١] الحوادث والبدع، تحقيق محمد الطالبي، نشر كتاب التربية القومية، تونس ١٩٥٩ ص ٧٨.

[٢] ابن بسام: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، الجزء الرابع، القسم الأول، ص٣٤، أحمد حامد المجالي: الصقالبة ودورهم السياسي والثقافي في الأندلس، رسالة دكتوراة، جامعة مؤتة، الأردن، ٢٠٠٨،ص١٨٦–١٨٨.

[٣] ظهر الإسلام، هنداوي للطباعة، القاهرة، ٢٠١٢، ص٧٠٢–٧٠٣ .

بينهما، فضلاً عن اتصال الأندلس بالعالم الإسلامي من خلالها، إذ تم تبادل السفارات والهدايا بينهما حتى صار ذلك تقليدًا متبعًا في المناسبات المختلفة؛ على سبيل المثال يذكر الباروني[١] أن الإمام أفلح بن عبد الوهاب[٢](١٩٨-٢٤٧هـ/٧٨٥-٨٦١م) تبادل الهدايا النفيسة مع أمراء الأندلس، وعندما انتصر الأمير عبد الرحمن الأوسط على النورمان حرص على إبلاغ حليفه الرستمي بذلك، وتم تبادل الهدايا بينهما بهذه المناسبة[٣]، لكن لم تفصح المصادر عن محتوياتها.

بعد قيام الدولة الفاطمية في بلاد المغرب عام ٢٩٧هـ/٩٠٩م دخلت في صراع مع الدولة الأموية في الأندلس، أخذ أمراء بلاد المغرب المناوئين للفاطميين محالفة الخليفة عبد الرحمن الناصر، طالبين منه العون والمدد، ومقدمين في نفس الوقت النفائس والنوادر الموجودة في بلادهم هدايا له، وكان الخليفة يتقبل ذلك منهم ويهاديهم بأفخم منها، منها على سبيل المثال: في سنة ٣١٦هـ/ ٩٢٨م دخل الأمير إدريس بن إبراهيم السليماني الحسني أمير أرشقول[٤] في طاعة الخليفة عبد الرحمن الناصر،

---

[١] عبد الله الباروني: الأزهار الرياضية في أئمة ملوك الإباضية، مطبعة الأزهار البارونية، الجزائر، بدون، الجزء الثاني، ص ١٨٦-١٨٧.

[٢] أفلح بن عبد الوهاب بن رستم ثالث أئمة الدولة الرستمية من ٢١١-٢٤٠هـ/٨٢٦-٨٥٤م، تولى الإمامة بعد والده لكفاءته وشجاعته وخبرته، ويعد ذلك خلافا لمباديء الخوارج في عدم التوريث، بلغت الدولة الرستمية في عهده أوج عظمتها وحضارتها، للمزيد، الباروني: الأزهار الرياضية في أئمة ملوك الإباضية ، الجزء الثاني، ص١٩٠، السيد عبد العزيز سالم: تاريخ المغرب في العصر الإسلامي، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ص٥٦٨-٥٨٠، محمد عيسى الحريري: الدولة الرستمية بالمغرب الإسلامي، دار القلم، الكويت، الطبعة الثالثة، ١٩٨٧، ص ١٣٩-١٥٣.

[٣] للمزيد، محمد بن تاويت الطنجي: دولة الرستميين في تاهرت، صحيفة المعهد المصري للدراسات الإسلامية في مدريد، العدد الخامس، ١٩٥٧، ص ١٢٢، جودت عبد الكريم يوسف: العلاقات الخارجية للدولة الرستمية المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، بدون، ص ١٤٢، رشيد عبد الله الجميلي: الرستميون في تاهرت، مجلة المؤرخ العربي، العدد ٣٤، ١٩٨٧، ص١٩٥-١٩٨.

[٤] جزيرة حصينة عامرة تقع بالقرب من مصب نهر ملوية، لها ميناء ومرسى وأرض واسعة فيها الماشية والأموال السائمة. الإدريسي: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، المجلد الثاني، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ٢٠٠٢، ص ٥٣٤-٥٣٥.

وأهدى إلى الخليفة هدية حسنة من خيل وإبل وحيوان غريب مما هو موجود في بلاد المغرب، فقبله الخليفة وكافأه عليه[١]، وحذا حذوه بقية المناوئين للفاطميين مثل: الحسن بن عيسى الحسيني الذي قدم سنة ٣١٨هـ/ ٩٣٠م هدية حسنة للخليفة منها نيف وعشرون فرسًا من جياد الخيل العدوية، اثنتان منها لركوب الخليفة خاصة، وثلاث وعشرون من كرام الإبل، منها جمل كامل الحلية من مطايا الملوك، وعشر من الضآن من أجود ما هو موجود بأرض السودان، وغزالان جميلان، وثمانية من النعام، لم يكن في هدايا الملوك بالمغرب قبله مثل هديته، مقابل مبايعته للخليفة، فقبلها الناصر وكافأه عليها، وجعله من أتباعه وحلفائه[٢].

فعل الشيء نفسه محمد بن خزر[٣] أشهر أمراء المغرب المعارضين للدولة الفاطمية، ففي سنة ٣١٩هـ/ ٩٣١م دخل في طاعة الخليفة عبد الرحمن الناصر، واعترف بصحة خلافته دون العباسيين أو العبيديين، وقدم إليه هدية قيمة منها: عشرة نجب مخصية عجيبة الخلق متخيرة من جنسها بسروجها وأرسانها وأزمتها، وعشرين ناقة حوامل ومعها فحل لها جليل الخلقة، مع راعيها عبد أسود ماهر برعي الإبل، وثمانية عشر فرسا من جياد الخيل العربية، وغريب الحيوان أسدين ضاريين مع سَبَّاع يسوسهما، وأربع نعائم، فقبلها الخليفة منه وكافأه عليها بهدية نفيسة من إبداع الأندلس من الملابس السنية والكسى والحلى الفخمة والطرائف العجيبة، ومما اختصه به في هديته تلك تطريزه في هذه الملابس نقش اسمه محمد بن خزر وهو شيء لم يفعله مع أحد قبله، ليفتخر به[٤]، مما يدل على تبادل الهدايا بين الأندلس والمغرب خلال هذه الفترة.

---

[١] ابن حيان: المقتبس، نشر شالميتا، الجزء الخامس ، ص ٢٦٢-٢٦٣.

[٢] ابن حيان: المقتبس، نشر شالميتا، الجزء الخامس، ص ٢٦٥.

[٣] من أشهر أمراء قبيلة زناتة من بني يفرن وأحد دعاة الأمويين في بلاد المغرب، ابن عذاري: البيان المغرب، الجزء الثاني، ص ٢٤٣-٢٤٥.

[٤] ابن حيان: المقتبس، نشر شالميتا، الجزء الخامس، ص ٢٦٥-٢٦٩.

ثانياً: الهدايا المقدمة من كبار رجال الدولة إلى الأمويين:

أ) هدية أحمد بن عبد الملك بن شُهَيْد[١] عام ٣٢٧هـ/٩٣٩م

قدمها الوزير أحمد بن عبد الملك بن شُهَيْد عام ٣٢٧هـ/٩٣٩م[٢] للخليفة عبد الرحمن الناصر، والتي أجمعت معظم المصادر التي ذكرتها على أنها كانت أعظم وأكبر هدية قدمت في عهد الدولة الأموية في الأندلس بل في تاريخ الأندلس كله، قال ابن خلدون[٣]: "أنَّه لم يُهاد أحد من ملوك الأندلس بمثلها"، مما يدل أيضًا على شيوع الهدايا، ونالت هذه الهدية إعجاب الخليفة بل والناس جميعًا، وأقرُّوا بأنَّ نفسًا سمحت بإخراج مثلها نفس كريمة، وكتب معها رسالة بالاعتراف للخليفة بالنعمة والشكر عليها، وبسببها عظمت مكانة هذا الوزير في الدولة جداً، وزاده الخليفة حظوة واختصاصًا، وأسمى منزلته على سائر الوزراء، وضاعف له رزق الوزارة إلى ثمانين ألف دينار، وثنَّى له العظمة لتثنية الرزق فسماه ذا الوزارتين، وكان أول من تسمى بذلك في الأندلس، وأمر بتقديم مكان جلوسه في بيت الوزراء، وكتب اسمه أول اسم في ديوان العطاء[٤].

---

[١] ذو الوزارتين أبو عمر أحمد بن عبد الملك بن شُهَيْد بن عيسى، دخلوا الأندلس في أيام عبد الرحمن الداخل، وتولوا المناصب العليا لبني أمية في الأندلس حتى انقراض دولتهم، وتوفي سنة ٣٣٨هـ.ابن الآبار: الحلة السيراء، الجزء الأول، ترجمة حسين مؤنس، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٨٥، ص٢٣٧، المقري: نفح الطيب، المجلد الأول، ص٣٨٠-٣٨١.

[٢] المتفق عليه أن تاريخ تقديم هذه الهدية كان سنة ٣٢٧هـ، لكن بنت الشاطيء ذكرت تاريخًا آخر هو ٣٣٧هـ، ربما خلطت بينها وبين هدية قسطنطين السابع، لأن ابن حيان نفسه يذكر أن ابن شهيد عزل عن الوزارة سنة٣٣٠هـ، وعين الخليفة ابنه وولي عهده مكانه.المقتبس، السفر الخامس، ص٤٨٦-٤٨٧، ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، الجزء الرابع، ص ١٣٨، أحمد مختار العبادي: دراسات في تاريخ المغرب والأندلس، ص١٤٧، عائشة عبد الرحمن(بنت الشاطئ): أبو مروان بن حيان القرطبي وتاريخ الأندلس، مجلة المناهل المغربية ندوة ابن حيان، العدد ٢٩، ١٩٨٤، ص٨٠-٨١.

[٣] تاريخ ابن خلدون، الجزء الرابع، ص ١٣٨.

[٤] ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، الجزء الرابع، ص١٣٨، المقري: نفح الطيب، المجلد الأول، ص ٣٥٦، أزهار الرياض، الجزء الثاني، ص٢٦٢-٢٦٥.

نظرًا لضخامة هذه الهدية وتعدد أصنافها وما تعكسه من إعطاء صورة عامة عن الحضارة الأندلسية في ذلك العصر ينبغي ذكرها على سبيل الإجمال:

احتوت على الكثير من سبائك الذهب والفضة والتبر (٥٠٠ألف مثقال من الذهب العين، و٤٠٠رطلًا من التبر، و٤٥ألف دينار من سبائك الفضة)، وعجيب قطع المسك والعنبر والبخور والكافور (١٢رطلًا من العود الهندي، و١٨٠ رطلًا من العود المتخير، و١٠٠أوقية من المسك)، ومئات القطع من الثياب واللباس المختلفة الألوان والأنواع (٣٠ شقة من الحرير المرقوم بالذهب كلباس الخلفاء المختلف الألوان والصنائع، ١٠ أفرية من عالي جلود الفنك الخراسانية، ٦ مطارف عراقية خاصة له، ٤٨ ملحفة زهرية لكسوته، ١٠٠ ملحفة زهرية لرقاده، ١٠ قناطير شد فيها مائة جلد سمور، ٦ من السرادقات العراقية، ٤٨ ألف رطل من الحرير المغزول، ٣٠ بساطًا من الصوف مختلفة الصناعات، ١٠٠قطعة مصليات التي يصلى عليها)، ونوادر السلاح والخيل العراب والجياد الصافنات والسهام والتروس والنبال والخيول(٨٠٠ من التجافيف[١] المزينة أيام البروز والمواكب،١٠٠ من أبدع الصناعات وأغربها، ١٠٠٠ترس سلطانية، ١٠٠ألف سهم من النبال البارعة الصنعة، ١٥ فرسًا من الخيل العراب المتخيرة لركاب السلطان، ١٠٠ فرس من الخيل منها ١٥ للخليفة)، فضلاً عن الرقيق والجواري(٤٠ وصيفًا و٢٠ جارية من متخير الرقيق بكسوتهم وجميع آلاتهم)، والأملاك الواسعة وأطنان الصخور وقطع الخشب للبناء (قرية تغل آلافاً من أمداد الزرع، وقرية القنبانية، وقرية شيرة من عمل جيان، ٨٠٠ألف دينار لشراء الصخور، ٢٠ألف عود من الخشب[٢]).

---

[١] هى ما يجلل به الفرس من حديد وسواه ليقيه الجراح فهى كالدروع التي يرتديها المحارب.

[٢] ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، الجزء الرابع، ص١٣٨، نسخة أخرى تحقيق، خليل شحاده، ومراجعة سهيل زكار، دار الفكر العربي، بيروت، الجزء الرابع،٢٠٠٠، ص١٧٧–١٧٨، المقري: نفح الطيب، المجلد الأول، ص ٣٥٦، أزهار الرياض، الجزء الثاني، ص٢٦٢–٢٦٥.

تصنف هذه الهدية أنها من الهدايا النادرة والعجيبة، وذكرت فيها التفاصيل الدقيقة، عكس الهدايا المتبادلة بين الدولة البيزنطية والأمويين مثلاً، التي يبدو منها طبيعة ونوعية العلاقة بينهما، ويلحظ كثرة الأسلحة ومعدات القتال من بين أصناف هذه الهدية، وحتى الهدايا التي تبودلت بين الأمويين في الأندلس وحلفائهم من زعماء البربر في بلاد المغرب كثرت فيها أنواع الأسلحة ومعدات القتال كذلك، وإنْ دل ذلك على شيء فإنما يدل على القوة والاستعداد والأهبة للقتال، واستعراض القوة أمام أعداء الدولة في الداخل والخارج.

يبدو أيضاً أنَّ بعض أصنافها كان مستوردًا من خارج الأندلس، وربما يدل ذلك على أن كبار رجال الدولة كان لهم الحق أن يختاروا أولاً ما يناسبهم من البضائع المستوردة من الخارج[١]، وهذا يدل على أن الهدايا التي كان يتم تقديمها كانت تنتقى بعناية شديدة، وتختار من الأشياء النادرة حتى لو سبق إهداؤها له فهو يهدي منها لغيره، لتنال إعجاب المرسل إليه ورضاه.

لا شك أنَّ هذه الهدية تدل على ثروة ابن شُهَيْد الواسعة، وغناه الفاحش الذي تمتع به، لكن ما يثير التساؤل أنه لم يشر خبر الهدية عن مساءلته من أين لك هذا؟ بل أعجبت الخليفة ورفعت مكانة الوزير، فما الدافع إلى تقديم هذه الهدية بهذه الصورة؟ هل كرم منه وولاء لخليفته بلا مقابل؟ أمْ لينال حظوةً وقربًا كما حدث معه، أمْ خوفاً من المحاسبة والمصادرة فأسرع بتقديم جزءٍ من ماله في صورة هدية؟ وربما كانت هذه الطريقة العملية لدرء المصادرة المتوقعة للثروات تقليد متبع[٢]، وهنا يصعب تمييزها عن الرشوة، وإن كنت أميل إلى الظن الأخير؛ وهو ما دفع بروفنسال[٣] إلى أنْ يذكر أنَّ الخليفة عبد الرحمن الناصر لم يكن يتورع عن مصادرة أصحاب الثروات،

---

[1] **Anthony Cutler: Gifts and Gift Exchange as Aspects of the Byzantine, Arab, and Related Economies,p 267.**

[٢] بروفنسال: تاريخ أسبانيا الإسلامية، الجزء الأول، المجلد الثاني، ص ٨٠.

[٣] تاريخ أسبانيا الإسلامية، الجزء الثاني، المجلد الأول، ص ٥٣.

ويُنعم بالمناصب التشريفية مقابل الهدايا، ويعيب على الدولة الإسلامية في المشرق الرشوة في الحصول على المناصب، فليس من المستبعد لجوء خلفاء بني أمية في الأندلس لذلك، وربما قال ذلك بسبب ما ناله ابن شُهَيْد من مكانة، فكان دافعه لتقديم هذه الهدية هو خوفه من المصادرة، خاصة مع تملكه كل هذه الثروة.

خاصة وأن الخليفة الناصر مع جليل أعماله ونجاحه في توحيد الأندلس وإظهار قوتها ومكانتها الدولية، وصدق فيه قول دوزي أنه كان حاكمًا من حكام العصر الحديث المثاليين، وليس من حكام العصور الوسطى[١]، إلا إنه اتصف بالقسوة والغلظة تمثل ذلك في سطوته حتى بأبناء بيته وقصره، ومن يمتلكون ثروات كان يقاسمهم، ومن السهولة مصادرتهم، وهناك أدلة تؤيد ذلك منها موقفه من ابن السليم الذي عينه والياً على إحدى الولايات، وجمع خلال ذلك مالاً كثيرًا إلا إنه كان بخيلاً جدًّا، فكان الخليفة يعرّض به في مجلسه لكي يتبرع ببعض ماله لبيت مال الخليفة، وكان مما يُعرِّض به: ما بَال رجال من خاصتنا توسُّعوا في دنيانا، وجمعوا الأموال، وهم يرون كثرة إنفاقنا على شئوننا التي بها صلاح حالهم ومعايشهم، ويعلمون أنَّ أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه، قسطاس الموازين قاسم عماله فصيرها إلى بيت المال، وهو من هو وهم من هم، والأسوة في فعله، لكن ابن السليم تغاضى عن ذلك، وجارى الخليفة في تعريضه كأنه ليس المعني بالأمر، حتى فاض بالخليفة الكيل، فقال يومًا وكان ممسكًا سكينًا في يده: وددت أن أقطع رقبة من له مال كثير ولم يسهم منه لبيت المال، هنا طار عقل ابن السليم وأدرك أنه المعني بالتهديد، ففزع ورد على الخليفة قائلاً: طالما عرَّضت بي فسكت، بلى لي مال كثير، حُطه بالتقتير وأعددته للدهر العثور، ولست والله أعطيك منه درهمًا، إلاَّ أنْ تَسْتَحل وأعوذ بالله أنْ تمد يدك إليه بغير جناية مني، فإنَّ الأنفس محضرة الشح فاستحيا

[١] المسلمون في الأندلس الجزء الثاني، ترجمة، حسن حبشي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٤م، ص٥٧-٥٨.

الخليفة منه، وتلا قوله تعالى "إن يسألكموها فيحفكم تبخلوا ويخرج أضغانكم[١]" وبلغ به الاضطراب أن تقيأ وأخرج ما في بطنه، والخليفة ممسك برأسه ويقول له: تأنَّ بنفسك واستفرغ ما في معدتك، فاستحيا منه ابن السليم وشكره وعاد إلى بيته، وبعد أيام أرسل مبلغاً من المال للخليفة فقبله منه[٢].

موقف آخر حدث مع ابن شُهَيْد نفسه قبل تقديم هديته المشهورة، يدل على نفسية الخليفة إذ إنه كان لديه غلامٌ حسن الصورة، فلمحه الخليفة يومًا فقال له: من أين لك هذا؟ قال: هو من عند الله، فرد عليه منكراً تتحفوننا بالنجوم، وتستأثرون بالقمر، فاعتذر الوزير ثم جمع هدية قيمة وبعثها مع الغلام إلى الخليفة، وقال له: كن في جملة ما أرسلت به، يا بني لولا الضرورة ما سمحت بك نفسي، وكتب مع الهدية للخليفة قائلاً:

أمولاي هذا البدر سار لأفقكم ... وللأفق أولى بالبدور من الأرض

أرضيكم بالنفس وهى نفيسة ... ولم أر قبلي من بمهجته يرضي

تكرر ذلك أيضا بعد فترة عندما حصل هذا الوزير على جارية حسناء، فخاف أن ينهى ذلك إلى الخليفة فتكون كقصة الغلام، فجمع هدية أخرى وبعثها معها إليه وكتب قائلاً

أمولاي هذه الشمس والبدر أولاً ... تقدمت كيما يلتقي القمران

فما لهما والله في الحسن ثالث ... وما لك في ملك البرية ثان[٣]

فقبلها الخليفة منه وأثابه عليها

دليل آخر وهو من عهد الحاجب المنصور بن أبي عامر هذه المرة، وذلك عندما انتهت فترة ولاية عبد الملك بن أحمد بن شُهَيْد –ابن هذا الوزير– على كورة مرسية وبلنسية التي استمرت تسع سنوات وعاد إلى قرطبة، ومعه أموال كثيرة وعبيد من الصقالبة، قدَّم كل ذلك للحاجب المنصور إلا إنه رفض أخذها وقال له: لو أردنا أخذها ما ولياك٤.

---

[١] سورة محمد، من آية ٣٧.

[٢] ابن عذاري: البيان المغرب، الجزء الثاني، ص٢٠٨–٢٠٩.

[٣] المقري: نفح الطيب، المجلد الأول، ص ٣٦١–٣٦٣.

[٤] بروفنسال: تاريخ أسبانيا الإسلامية، الجزء الثاني، المجلد الأول، ص١٨٠.

ب)هدية جعفر بن عثمان المصحفي للخليفة الحكم المستنصر

هدية أخرى مماثلة لهدية ابن شُهَيْد قدمها الحاجب جعفر بن عثمان المصحفي ت٣٧٢هـ/٩٨٢م للخليفة الحكم المستنصر ٣٥٠-٣٦٦هـ/٩٦١-٩٧٦م عندما تولى الخلافة أراد بها أن يبز هدية ابن شُهَيْد المشهورة، أوردت بعض المصادر بياناً تفصيليًّا لها على النحو التالي:

اشتملت على مائة مملوك من الفرنج على خيولها كاملة العُدة والسلاح، ومئات من الدروع والخوذات والبيض الهندي، والحراب والتروس، وسبائك الذهب والفضة المختلفة[١]، وكانت هذه الهدية من أشهر الحوادث الاجتماعية في ذلك الوقت، ويلحظ أن الهدايا لم تشتمل فقط على التحف النادرة، بل اشتملت أيضًا على الأشياء الرائجة والمشهورة في حينها، مما يعطى دلالة على حالة الدولة من حيث القوة أو الضعف، فقد كانت الأندلس في ذلك الوقت في ذروة قوتها ومجدها، لذلك اشتملت هذه الهدية على أسلحة ومعدات حربية وقطع ذهبية، مما يعطى دلالة على القوة والثروة كما أسلفنا،

كما قدم الخازن دري الصقلبي عام٣٦٢هـ/٩٧٢م هدية قيمة للخليفة الحكم المستنصر، عبارة عن ضيعة كاملة بكل ما تحويه من بساتين وأراض وعبيد ودواب وخلافه، بوادي الرُمَّان من ضواحي قرطبة، كان الخليفة يقضى فيها أيام تنزهه وخَلَواته مع حاشيته ورجاله، وكان دُرِّي قد أنفق عليها من صنوف البذخ والبهاء فكانت جَنَّة حقًا، حتى أجمع مرافقو الخليفة أنهم لم يشاهدوا في المتنزهات السلطانية أكمل ولا أعم من مُنية دُرِّي هذه[٢]، مما يدل على تنوع الهدايا واختلافها تبعًا للشخص المُقَدِّم لها، وخبرة صاحبها وحرصه على تلبية حاجة ما عند المهداة إليه، نظرًا لعلاقته به ومعرفة ما الذي يميل إليه.

---

[١] ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، الجزء الرابع، ص ١٤٤، المقري: نفح الطيب، المجلد الأول، ص٣٨٢-٣٨٣، محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، الجزء الثاني، ص ٥١١-٥١٢.

[٢] ابن حيان: المقتبس في أخبار بلد الأندلس، تحقيق، عبد الرحمن الحجي، ص١٠٦-١٠٧، نسخة صلاح الهواري، ص٨٠-٨١، المقري: نفح الطيب، المجلد الأول، ص٢٤٧-٢٤٨، بروفنسال: تاريخ أسبانيا الإسلامية، المجلد الثاني، الجزء الأول، ص١٨٠.

ج)هدايا المنصور محمد بن أبي عامر للسيدة صبح:

من الهدايا البارزة المقدمة خلال هذه الفترة هدايا محمد بن أبي عامر[١] –في بداية عهده– المتعددة والغريبة، للسيدة صبح(Arora)[٢] زوج الخليفة الحكم المستنصر، فقد استجلب عطفها عليه بسعة البذل في باب الإتحاف والمهاداة، حتى أنَّه كان يهاديها بأشياء لم يُعَهد مثلها، فقد أهداها ذات مرة نموذج قصر من الفضة بديع الصنع والزخرف لم تر العيون أعجب منه، في تحف القصر وذخائره، أنفق عليه مالاً عظيمًا وشهده أهل قرطبة حين حُمِل على أكتاف الرجال من داره إلى القصر، وتحدث الناس بشأنه دهرًا، وكان له وقع في قلب السيدة صبح فبالغت في بره والعطف عليه؛ حتى أنَّ الخليفة لحظ ذلك فقال يومًا لبعض خواصه: ما الذي استلطف به هذا الفتى حرمنا حتى ملك قلوبهن مع اجتماع زخرف الدنيا عندهن، حتى صرن لا يصفن إلاَّ هداياه ولا يرضيَّن إلاَّ بما أتاه إنَّه لساحر عظيم أو خادم لبيب وإني لخائف على ما بيده[٣].

---

[١] للمزيد، ابن الآبار: الحلة السيراء، الجزء الأول، ص ٢٦٨–٢٧٧، ابن الخطيب: تاريخ أسبانيا الإسلامية، تحقيق، بروفنسال، دار المكشوف، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، ١٩٥٦، ص٥٩–٨٢.

[٢] جارية بشكنسية ظهرت في بلاط قرطبة في أوائل عهد الحكم المستنصر الذي تزوجها وأنجب منها ابنه عبد الرحمن مات صغيرًا، ثم هشام الذي تولى الحكم بعده ولقب بالمؤيد، وحازت نفوذًا كبيرا حتى صارت تتدخل في شئون الدولة ويستمع الخليفة إلى رأيها، وهو ما استغله ابن أبي عامر فتقرب إليها بما كان يتحفها به من هدايا وبفضلها تمكن من تحقيق ما كان يحلم به وأخيرا تغير عليها وصادر أموالها وحجر عليها حتى توفيت سنة ٣٨٩هـ. ابن بسام: الذخيرة ، القسم الرابع، الجزء الأول، ص٧٠، ابن سعيد المغربي: المغرب في حلى المغرب، الجزء الأول، ص١٩٦، ابن عذاري: البيان المغرب، الجزء الثاني، ص٢٣٥–٢٣٦، المقري: نفح الطيب، المجلد الرابع، ص٨٧، ٩١–٩٢.

[٣] ابن عذاري: البيان المغرب، الجزء الثاني، ص٢٤٠–٢٤١، من الجدير بالذكر أنه لأجل المصلحة المشتركة التي ربطت بين ابن أبي عامر وصبح، خاض عدد من المؤرخين في تفسيرها وإساءة الظن بهما والقول بأن العلاقة بينهما خرجت عن إطار خادم ومخدوم. ابن الخطيب: أعمال الأعلام، الجزء الثاني، تحقيق، سيد كسروي حسن، منشورات، محمد على بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ص٦٣، المقري: نفح الطيب، المجلد الأول، ص ٣٩٩،فوزي: المسلمون في الأندلس، الجزء الثالث، ص٧٥، لكن يبدو أن العلاقة بينهما لم تتعد حدود المصالح المشتركة لكل منهما، للمزيد، فوزي القبوري: فقهاء الأندلس والمشروع العامري، دار كنوز إشبيليا، الرياض، الطبعة الأولى،٢٠١٠، ص٤٢–٤٣، يوسف حوالة: المرأة في البلاط الأموي في الأندلس، حولية كلية الآداب والعلوم الاجتماعية، العدد ٢٤، ٢٠٠٤، ص١٣٥.

كذلك كانت الهدايا رمزًا تعبيريًا عن بعض الحوادث السياسية، مثل الهدية التي قدمها العالم اللغوي صاعد البغدادي إلى الحاجب ابن أبي عامر، وكانت عبارة عن أَيِل (نوع من الغزلان البرية) أطلق عليه لقب غرسيهGarcia وأرسل معه هذه الأبيات في مناسبة معينة

يا حرز كل مخوف وأمان كل مشرد ومعز كل مذلل
عبد جذبت بضبعه ورفعت من مقداره أهدى إليك بأيل
سميته غرسية وبعثته في حلية ليتاح فيه تفاؤلي

فقدَّر الله أنْ أُسر غرسية بن شانجة ملك قشتالة، وكان أمنع من النجم، في ذلك اليوم بعينه الذي وصلت له فيه هذه الهدية، وكان ذلك في ربيع الآخر سنة ٣٨٥هـ/٩٩٥م، فزاد حب المنصور لصاعد بسبب هذا التوافق[١].

كما شاعت ظاهرة تبادل الهدايا داخل المجتمع الأندلسي خلال العصر الأموي، سواء بين رجال الخاصة وبعضهم أو بينهم وبين غيرهم، وما يؤكد ذلك قول ابن حيان[٢] عند حديثه عن عيسى بن شُهَيْد قال: "أنه لم يخدم أحد بني أمية في الأندلس مثل عيسى بن شُهَيْد، وكان الحاجب عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث قبله بهذه الصفة، بل زاد عليه إلا إنه كان يُقصّر عن عيسى في باب قبول الهدية وتجويز المكافأة على قضاء الحاجة، فإنّه كان يقبل ذلك ولا يأباه، وكان عيسى على الضد من ذلك لا يقبل شيئاً منه البتة، وكان يهجر من عرضه عليه".

---

[١] الحميدي: جذوة المقتبس، ص٢٤٠-٢٤٤، عبد الواحد المراكشي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق، محمد سعيد العريان، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، ١٩٦٢، ص٨٢-٨٣، ابن الأثير: الكامل في التاريخ، الجزء السابع، تحقيق، محمد يوسف الدقاق، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٧، ص ٤٧٤، فوزي القبوري: فقهاء الأندلس والمشروع العامري، ص ١١٤-١١٥.

Francisco Pons Boigues : Ensayo Bio-Bibliografico sobre los Historiadores Y Geografos Arabico –Espanoles, , Madrid, 1898, p 111-113.

[٢] المقتبس، تحقيق، محمود مكي، ص ١٦٩، ابن الآبار: الحلة السيراء، الجزء الأول، ص ١٣٥، هامش ١.

كانت الهدايا شائعة بين الأشخاص وبعضهم البعض كمظهر من مظاهر الحياة الاجتماعية، مثل الهدية التي قدمها أبو بكر بن زيدون لصديق والده ابن حيان- مؤرخ الأندلس- وكتب له رسالة يعتذر له فيها عن ضآلة الهدية، وكانت تشتمل على أحمال من القمح والزيت والدهن، وقبل ابن حيان هذه الهدية بفرح وسرور بالغ، ربما أراد أن يجامله فقال بأنَّها أتته في وقت وافق عدمًا من القوت والزاد، مما استخلص منها البعض بأنَّ ابن حيان كان فقيرًا[١]، وإن لم يكن ابن حيان ذا ثروة ومال؛ فالذيَّن من طرازه غالباً لم يكونوا ذوي مال وثروة[٢]، ولكن التعبير عن الشكر على الهدية والفرح بوصولها لا يقتضي بالضرورة أن يكون الفقر هو مملي تلك العبارات[٣].

ثالثاً: أثر الهدايا في الأندلس

من الآثار المهمة للهدايا المتبادلة التلاقح الحضاري الذي حدث في الأندلس، فمن المعلوم أن الأندلس كانت موطنًا للقاء بين حضارتين: إسلامية مشرقية من جانب، ولاتينية مسيحية من جانب آخر، لعبت الهدايا دورًا مهمًا في هذا التلاقح في عديد من النواحي من أهمها:

أ) الناحية العلمية:

أدى تبادل الهدايا إلى إدخال كتب جديدة إلى الأندلس لم تكن معروفة من قبل، مما أثر إيجابيًّا على الحياة العلمية، التي ازدهرت في هذا العصر ازدهارًا كبيرًا، ففي هدية إمبراطور الدولة البيزنطية قسطنطين السابع إلى الخليفة عبد الرحمن الناصر، وإنْ كانت لأغراض سياسية فقد صحبها اتصال حضاري؛ وربما كان حريصًا أن تقوم روابط ثقافية بين القسطنطينية

---

[١] تعليق محمود مكي على المقتبس لابن حيان، ص٤٢.

[٢] لأن أهل العلم غالبا ليسوا من أهل الغنى والثراء؛ لأن العلم يحتاج إلى البذل، ومنه قول مالك:" إن هذا الأمر لن ينال حتى يذاق فيه الفقر. للمزيد، صالح أحمد العلي: تطور الحركة الفكرية في صدر الإسلام، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٣، ص٤٢.

[٣] تعليق محمود مكي على المقتبس لابن حيان، ص٤٢.

وقرطبة[١]، فعندما علم مدى شغف الخليفة وولي عهده بالكتب فضمن هديته كتبًا جديدة هى كتاب ديسقوريدس في الطب الذي أدى إلى تقدم علم الطب في الأندلس بعد أنْ تمت ترجمته إلى العربية، فقد تألفت من الراهب نيقولا وبعض علماء الأندلس ما يمكن أن نسميه لجنة علمية قامت بترجمة الكتاب وتوضيح أنواع النباتات التي ذكرت فيه، ومن بين هذه اللجنة الطبيب اليهودي حسداي بن شبروط[٢] الذي كان يحظى بمنزلة خاصة عند الخليفة الناصر، كما كان فيها الفيلسوف أبو عبد الله الصقلي التي كان يكتب ويتكلم باليونانية كأحد أبنائها، وله خبرة واسعة بالعقاقير، ورجل يعرف بالبسباسي وأبو عثمان الخرَّاز الملقب باليابسة ومحمد بن سعيد الطبيب وعبد الرحمن بن إسحاق بن هيثم، وطبيب اسمه محمد ويعرف بالشجار[٣].

أدى ذلك إلى إقبال العلماء الأندلسيين على دراسة الطب والنباتات الطبية متخدين من هذا الكتاب مصدرًا رئيسًا لهم[٤]، لدرجة أن اعتبر البعض[٥] أن ترجمة هذا الكتاب كان أحد أكثر العوامل تحفيزاً للتطور في علمي الأدوية والنبات، وبالتالي في علم الزراعة والفلاحة.

---

[١] إبراهيم بيضون: الدولة العربية في أسبانيا، ص ٢٩٤-٢٩٦.

[٢] ولد في أسرة ابن عزرا اليهودية المثقفة علمه أبوه اللغات العبرية والعربية واللاتينية، ودرس الطب وغيره من العلوم في قرطبة، وكان طبيب الخليفة الخاص، وظهر نبوغه فكلفه الخليفة عبد الرحمن الناصر بكثير من المهام السياسية والدبلوماسية، ولما يتجاوز الخامس والعشرين من عمره، ولم يلقبه الخليفة بلقب وزير، ونال حسداي محبة الجميع، وبذل جهدًا كبيرًا لتشجيع العلم وكان يمنح الطلاب الهبات المالية والكتب بلا ثمن، وعندما مات تنافس المسلمون واليهود في تكريم ذكراه. ول ديورانت: قصة الحضارة، عصر الإيمان، مكتبة الأسرة، القاهرة، ص٥١-٥٢، خالد يونس الخالدي: اليهود في الدولة العربية الإسلامية في الأندلس، دار الأرقم، غزة ، فلسطين، ٢٠١٠، ص٤٣٠-٤٣١.

[٣] ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، الجزء الثاني، ص٤٧، على راضي: الأندلس والناصر، دار الكاتب العربي القاهرة،١٩٦٧، ص٧٦.

[٤] أحمد مختار العبادي: الإسلام في أرض الأندلس،عالم الفكر، المجلد العاشر، العدد الثاني،١٩٧٩، ص٣٨٥.

[٥] إكسبيراثيون غارثيا سانشيز: الزراعة في إسبانيا المسلمة، الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، الجزء الثاني، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٩٩٨، ص١٣٦٨.

من أشهر هؤلاء العلماء عبد الرحمن بن الهيثم[١] طبيب المنصور بن أبي عامر الذي كتب عدة كتب من الأدوية المفردة، كذلك العالم النباتي سليمان بن جلجل ت٣٧٧هـ/٩٨٧م الذي كان طبيبًا للخليفة هشام المؤيد، وله شروح مفيدة على كتاب ديسقوريدس فسر فيها مضمون أسماء بعض الأدوية المفردة وصفاتها[٢]، والطبيب أبي المطرف عبد الرحمن بن وافد اللخمي الذي كان طبيبًا ووزيرًا لابن ذي النون في طليطلة، وقد اطلع على كتب جالينوس وديسقوريدس وكتب مؤلفًا ضخمًا عن الأدوية المفردة، كذلك ابن البيطار المالقي الإشبيلي أعظم علماء النبات في عصره، ت٦٤٦هـ/١٢٤٨م صاحب كتاب الجامع لمفردات الأغذية والأدوية وصفه تلميذه الدمشقي ابن أبي أصيبعة ت٦٦٨هـ/١٢٦٩م عندما لقيه أول مرة بدمشق بقوله: كنت أجد من غزارة علمه ودرايته شيئًا كثيرًا، وكان لا يذكر دواء على جوابه لمن يسأله إلا ويعين في أي مكان هو من كتاب ديسقوريدس وجالينوس، وكان ثقة فيما ينقله للجميع، هذا وينص ابن البيطار في مقدمة كتابه على مصادره التي نقل منها ومنها كتاب ديسقوريدس هذا[٣].

إذن صار مرجعًا للمشتغلين بالطب في الأندلس في ذلك الوقت، وعلى رأسهم ابن جلجل أشهر أطباء الأندلس الذي ألف كتابًا بيَّن فيه طرق العلاج اعتمادًا على كتاب ديسقوريدس، وكان ضمن فريق المترجمين[٤]، ونتيجة لذلك تطور علم الطب وتنوعت فروعه وكثرت المصنفات فيه؛ إذ ألف عبد الرحمن بن إسحاق بن الهيثم مختصرًا أسماه" الكمال والتمام في الأدوية المسهلة والمقيئة" وكتاب "الاكتفاء بالدواء"، وألف سعيد بن عبد ربه كتابًا خاصًّا في

---

[١] ابن الهيثم الطبيب عبد الرحمن بن إسحاق القرطبي المالكي ت٣٤٠هـ، ومن مؤلفاته: كتاب الأرصاد الكلية، والاقتصاد والايجاز في خطأ ابن الحراز في الاعتماد، والاكتفاء بالدواء بخواص الأشياء، والكمال والتمام في الأدوية المسهلة والمقيئة. إسماعيل البغدادي: هدية العارفين في أسماء المؤلفين والمصنفين، المجلد الأول، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ١٩٥٥، ص٥١٣-٥١٤.

[2] Francisco Pons Boigues: Ensayo Bio-Bibliografico sobre los Historiadores Y Geografos Arabico –Espanoles , p 90.

[٣] أحمد مختار العبادي: الإسلام في أرض الأندلس، ص٣٨٥-٣٨٦.

[٤] ابن جلجل: طبقات الأطباء والحكماء، مقدمة المحقق. وألف ابن جلجل كتابًا أسماه الأدوية المفردة من كتاب ديسقوريدس لكنه مفقود.

علاج الحميات، ووضع يونس بن إسحاق موسوعة شاملة لأسماء النباتات المستعملة في الطب وغير ذلك الكثير[١]، كما وضعت كتب مستقلة لترجمة مصطلحاته وألفت شروح منفردة له منها كتاب الجامع لمفردات الأدوية والإغذية لابن البيطار[٢] .

لكن يجب أن نذكر أن قرطبة كان فيها من يعرف الإغريقية من الأطباء المسلمين واليهود، وكانوا يعرفون من خلال دراساتهم العميقة كل الأسماء التي وردت في كتاب ديسقوريدس باستثناء عدد لايزيد على عشرة ونيف[٣].

لا شك أنَّ الذي شجَّع على ذلك أولاً حب الخليفة الحكم المستنصر للكتب، وأنَّ أقرب طريق لاستمالته للحصول على منفعة أو نيل منصب ما هو إلاَّ إهداؤه كتابًا ليس في مكتبته، لهذا أخذ كثير من العلماء يخصونه بمؤلفاتهم أو يهدونهم نسخًا من كتب نادرة؛ مما انعكس بدوره على النهضة العلمية التي شهدتها الأندلس في ذلك الوقت؛ منها على سبيل المثال إهداء الأسقف ربيع بن زيد له كتاب الأنواء[٤]، ومثله الأديب ابن فرج الجياني الذي أهدى كتابه الحدائق والذي عارض فيه كتاب الزهرة لابن داود الأصفهاني للخليفة الحكم، ومحمد بن يوسف الوراق الذي أهدي للخليفة كتابه مسالك إفريقية وممالكها وأخبار ملوكها فأعجب به الخليفة وكافأه عليه[٥]، وغيرهم الكثير.

---

[١] ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، الجزء الثاني ص ٤١-٤٢، ابن عبد الملك المراكشي: الذيل والتكملة، السفر الخامس، تحقيق، إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ١٩٦٥، ص ٢٣٩.

[٢] ابن البيطار: تفسير كتاب دياسقوريدوس، ص٥٠-٥٣.

[٣] ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، ص٤٧، ريبيرا: التربية الإسلامية في الأندلس، ترجمة، الطاهر مكي، دار المعارف، القاهرة، ص١٩١.

[٤] ريبيرا: التربية الإسلامية، ص١٩٥، بروفنسال: أسبانيا الإسلامية، ص ٢٤٦-٢٤٧. من المصادر الرئيسة عن الزراعة في الأندلس.

[٥] ريبيرا: التربية الإسلامية، ص ١٩٧.

ب) فن البناء والعمران:

لعب تبادل الهدايا دورًا في فن البناء والزخرفة في الأندلس خاصة في عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر، فعندما أسس الزهراء وجهزها بأفخم الأثاث مثل: الحوض الشهير المنقوش بالذهب لا يقدر بثمن، الذي أهداه إليه إمبراطور بيزنطة، والذي أسماه ابن عذاري[١] " اليتيمة" وتولى عملية نقله إلى قرطبة الأسقف ربيع بن زيد مع عدد من السواري التي استخدمت في بناء وتزيين الزهراء[٢]، واستنتج بروفنسال[٣] أن الخليفة عبد الرحمن الناصر أراد أن يقلل من تأثير العراق على الحضارة الأندلسية، فاستحضر عدداً من العمال من بيزنطة، وخبراء بفن البناء لتدريب البنائين الأندلسيين وأفاد من ذلك في تنسيق قصور الزهراء ومبانيها.

وإذا كانت الهدايا التي تمت بين الخليفة عبد الرحمن الناصر والإمبراطور البيزنطي قد نتج عنها التلاقح الحضاري المثمر الذي أسفر عن ترجمة الكتب، وظهور إضافات علمية جديدة في مجالي الطب والصيدلة طوال القرون التالية، فإن الهدايا التي تبودلت بين البلدين في عهد الخليفة الحكم المستنصر قد تمخضت عنها آثار فنية معمارية لها قيمتها، إذ يؤثر عن هذا الخليفة أنه طلب من الإمبراطور البيزنطي فوكاس Phocas[٤] أن يرسل إليه خبيرًا في صنع الفسيفساء كي يعمل على

---

[١] البيان المغرب، الجزء الثاني، تحقيق بشار عواد، ص ٢١٦، ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، الجزء الرابع، ص١٤٤، محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، الجزء الثاني، ص ٤٣٨.

[٢] ابن الخطيب: أعمال الأعلام، الجزء الثاني، ص ٣٨.

Anthony Cutler: Gifts and Gift Exchange as Aspects of the Byzantine, Arab, and Related Economies, p 254.

[٣] على أدهم : عبد الرحمن الناصر، أعلام العرب، ص ١٢٨.

[٤] Phocas من ٦٠٢-٦١٠م يمثل عهده نهاية حكم أسرة جستنيان وبداية حكم أسرة هرقل وتولى العرش بعد ثورة ضد الامبراطور موريس في القسطنطينية واتصف بالحمق والطغيان، وتعرضت الدولة في عهده لسلسلة من الهزائم على يد الفرس، ولم ينقذ الموقف سوى وصول أسطول هرقل حاكم إفريقية بعد أن انضمت إليه مصر بقيادة ابنه هرقل أيضًا الذي نجح في هزيمة فوكاس وإعدامه سنة ٦١٠م، للمزيد ، محمد محمد مرسي الشيخ: تاريخ الإمبراطورية البيزنطية، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٩٤، ص٦٩-٧٠.

تزيين الزيادة المعمارية التي كان يزمع القيام بها في المسجد الجامع بقرطبة، هذا إلى جانب أعمدة الرخام التي سبق أن ساهمت بها القسطنطينية في بناء مدينة الزهراء على عهد والده وعددها مائة وأربعون سارية، كل هذا بالطبع يدل على أثر أساتذة الفن البيزنطي في بعض مباني العاصمة الأموية[١].

في سنة ٣٥٤هـ/٩٦٥م زيَّن الخليفة الحكم المستنصر المسجد الجامع في قرطبة بالفسيفساء المذهب الملون، وكان إمبراطور بيزنطة قد بعث به هدية إليه بناء على طلب الخليفة منه ذلك اقتداء بما فعله الخليفة الوليد بن عبد الملك في بناء جامع دمشق، وعاد الوفد إلى قرطبة برفقة مهندس وخبير بيزنطي ومعه من الفسيفساء ثلاثمائة وعشرون قنطاراً هدية من الإمبراطور، فأمر الخليفة الحكم بإنزال هذا الخبير في قصر مُعَد له، والتوسعة عليه ووضع تحت إمرته مجموعة من العمال ليدربهم حتى أتقنوا هذا الفن، ثم عاد إلى بلده بعد أنْ أجزل له الخليفة الهدايا والصلات[٢].

ج)صناعة الملابس والطراز:

تدل الهدايا المتبادلة خلال هذه الفترة على تطور ورقي صناعة الطراز والملابس الخاصة بالأمراء والخلفاء، والتي أنشأ الأمير عبد الرحمن الأوسط دارًا خاصة بها في قرطبة سميت بدار الطراز[٣]، تختص فقط بملابس الخليفة ومن يهاديه ويخلع عليه ويتميز إنتاج هذه الدار بأن نسيجها يحمل نقوشًا كتابية بأسماء من تُهدي إليهم

---

[١] أحمد مختار العبادي: الإسلام في أرض الأندلس، ص ٣٨٦-٣٨٧. M.Florian : History of the Moors of spain.p 66.

[٢] الإدريسي: صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس، ليدن، ١٨٦٣، ص ٢٠٩، ابن عذاري: البيان المغرب، الجزء الثاني، ص٢٢٣، ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، الجزء الرابع، ص١٨٤، بروفنسال: حضارة العرب في الأندلس، ص٨٦-٨٧، نورمان بينز: الإمبراطورية البيزنطية، تعريب، حسين مؤنس، محمود يوسف زايد، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٥٠، ص٣٨٠.

[٣] ابن حيان: المقتبس، السفر الثاني، تحقيق محمود مكي، ص٢٩٠، ابن عذاري: البيان المغرب، الجزء الثاني، ص١٣٦، ابن الخطيب: أعمال الأعلام، الجزء الثاني، ص٢١، عبد العزيز سالم: قرطبة حاضرة الخلافة الأموية في الأندلس، الجزء الثاني، ص١٥٤.

بغرض التنويه بهم وتشريفهم؛ ومن ذلك الهدية التي قدمها الخليفة عبد الرحمن الناصر إلى محمد بن خزر زعيم قبيلة زناتة المغربية الموالية للأمويين والمعادية للفاطميين في بلاد المغرب، إذ أهداه الخليفة من طرازه الخاص عشر قطع مختلفة الأجناس بديعة في الصنعة مطرزة باسمه، وخمسين قطعة فائقة في القيمة، وسيفًا صارمًا إفرنجيًّا محلى بفضة مذهبة منقشة في غمد سفن حوت[١]، وبلغت هذه الصناعة تطورًا كبيرًا في عهده، وصفها ابن الخطيب[٢] "أنها ضربت بها الأمثال وقضيت فيها العجائب".

كذلك هدية ابن شُهَيْد للخليفة عبد الرحمن الناصر حوت كثيرًا من هذا اللباس، وهداياه الكثيرة التي أنعم بها على موسى بن أبي العافية سنة ٣١٩هـ، التي كانت تشتمل على الكسى الرقيقة من الخز مختلف الأجناس، ما بين شقة وعمامة وبرنس، كذلك سار على نهجه الخليفة الحكم المستنصر في هداياه لقادة البربر في بلاد المغرب، كما كان المنصور محمد بن أبي عامر أيضًا يهادي بعضًا من ملوك الممالك الأسبانية منه، وكان يستدعي أجناد البربر إلى الأندلس، فيخلع على الرجل منهم بلباس الخز الطرازي بدلاً من لباسه الخلق[٣]، وهذا التنوع والثراء في المنسوجات يدل على المستوى الحضاري الذي وصلت إليه الأندلس في هذا المجال؛ إذ كان الملوك يقدمون للوفود هدايا كبيرة تحتوي على الملابس والحلي والزخارف العربية البراقة فتحمل هذه الهدايا إلى بلادهم، وتكون بعد ذلك دافعًا للتبادل التجاري بين البلدين[٤].

---

[١] ابن حيان: المقتبس، تحقيق شالميتا، السفر الخامس، ص ٢٦٥-٢٦٧، ٣٠٧، ويحتوى هذا الكتاب على هدايا كثيرة من دور الطراز هذه. سحر السيد عبد العزيز سالم: دور الطراز في الأندلس في عصر دولة بني أمية، بحوث مشرقية ومغربية في التاريخ والحضارة الإسلامية، الجزء الأول، مؤسسة شباب الجامعة، الأسكندرية، ١٩٩٧، ص٥٢٠، منى عيد شعبان: النسيج واللباس في عصر الإمارة الأندلسية، كتاب الحضارة العربية الإسلامية في العصور الوسطى، منشورات اتحاد المؤرخين العرب، القاهرة ، ٢٠٠، ص ٣٠٣

[٢] ابن الخطيب: أعمال الأعلام، الجزء الثاني، ص٤٠-٤١.

[٣] ابن عذاري: البيان، الجزء الثاني، ص٤١٧، السيد عبد العزيز سالم: قرطبة حاضرة الخلافة الأموية في الأندلس، ص ١٥٥.

[٤] المقري: أزهار الرياض، الجزء الثاني، ص ٢٨٨-٢٨٩،سحر السيد عبد العزيز سالم: دور الطراز في الأندلس في عصر بني أمية، ص ٥٢٣.

من أثر الهدايا المتبادلة كذلك المساهمة في إطلاق سراح الأسرى المسلمين في بلاد الأعداء، تمثل ذلك في الهدية التي قدمها ردمير بن أردون ملك ليون للخليفة عبد الرحمن الناصر عام ٣٣٠هـ/٩٤١م، وكان سفيره فتح المعروف بالحجرملة، وحريز من أهل سمورة، والتي اشتملت على مصحف الخليفة الذي فقدت منه أجزاء في هزيمة الخندق[١] مع ثلاثين أسيرًا من المسلمين، ففرح الخليفة بهذه الهدية فرحًا شديدًا وكافأه على هديته تلك بضعف قيمتها[٢]، وربما كان هدف ردمير من هذه الهدية إظهار عظمة وقوة بلاده، وإدخال الرعب في قلب الخليفة حتى لا يفكر في الهجوم عليه بعد ذلك.

مثلها هدية بون فلي رسول بوريل ملك برشلونة عام ٣٦٠هـ والتي اشتملت على ثلاثين أسيرًا من أسرى المسلمين، كان الملك قد جمعهم في بلده ما بين رجل وامرأة وصبي، وكان عودة هؤلاء الأسري من أعظم ما أسعد الخليفة الحكم المستنصر، وأدخل السرور إلى قلبه فاستقبل هذه السفارة استقبالاً حافلاً وأكرمهم وشكرهم على إطلاق سراح هؤلاء الأسرى، ثم أمر بإعطاء هؤلاء الأسرى أموالاً لتغطية نفقات رجوعهم إلى بلادهم، وقدم هدية جليلة لهذه السفارة[٣].

كذلك من أثر الهدايا المساهمة في تحقيق بعض المصالح الخاصة لمن قدمها؛ مثل تولى بعض المناصب والوظائف العليا، أو المكانة الرفيعة في الدولة، وخير ما يعبر عن ذلك المكانة التي تبوأها ابن شُهَيْد بعد أن قدَّم هديته النادرة للخليفة عبد الرحمن الناصر؛ إذ رفع الخليفة قدره وضاعف له راتبه وثنى له العظمة لتثنية الرزق وسماه ذا الوزارتين، وكان

---

[١] كانت سنة ٣٢٧هـ /٩٣٩م بين الخليفة عبد الرحمن الناصر والممالك المسيحية شمال الأندلس، وفيها خرج الخليفة عبد الرحمن من قرطبة بجيش كبير من العرب والبربر والصقالبة بقيادة نجدة الصقلبي هزم المسلمين هزيمة مروعة نجا الخليفة منها بأعجوبة. مجهول: أخبار مجموعة، تحقيق، إبراهيم الإبياري، دار الكتاب المصري، القاهرة،١٩٩٠، ص١٣٧، أحمد مختار العبادي: في تاريخ المغرب والأندلس، مؤسسة الثقافة الجامعية، الأسكندرية، بدون، ص٢١٠-٢١١.

[٢] ابن حيان: المقتبس، السفر الخامس، ص ٤٧٥-٤٧٦.

[٣] ابن حيان: المقتبس، تحقيق، عبد الرحمن الحجي، ص٢١-٢٢، نسخة صلاح الهواري، ص١٤-١٥.

أول من لقب بذلك في الأندلس، وكتب اسمه في ديوان العطاء أول اسم، وعظم مقداره في الدولة جدًّا، واستمر على ذلك حتى عزله عام ٣٣٠هـ/٩٤١م[١]، وسار على نهجه الحاجب جعفر بن عثمان المصحفي مع الخليفة الحكم المستنصر بعد تقديمه لهديته، التي حاكى بها هدية ابن شُهَيْد إذ صارت له الكلمة العليا في الدولة، وتفرغ الخليفة لشئون العلم والبحث، كما يعبر عن ذلك أيضًا موقف ابن أبي عامر من السيدة صبح وإغداقه الهدايا العجيبة عليها، فوقفت بجانبه وساعدته في التمكين لنفسه في الدولة كلها حتى وصل إلى غايته التي ما بعدها غاية.

الخاتمـــــة

اعتبرت الهدايا تقليدًا دبلوماسيًا بين الدول لتوطيد العلاقات والسعي لتحقيق المصالح المختلفة، مثل محاولة الدولة البيزنطية كسب ود الدولة الأموية في الأندلس لتحقيق أهدافها الخاصة، أي أن الهدايا كان لها إغراء سياسي مثل هدايا ثيوفيلوس لعبد الرحمن الأوسط الذي حاول تليين موقفه للوقوف معه ضد الخلافة العباسية، لكن الأمير الأموي لعلمه بنوايا الإمبراطور البيزنطي رد ردًّا دبلوماسيًّا دون الوقوع في شرك التحالف معه، وإن لم يرد في المصادر تفاصيل دقيقة عن محتوياتها.

دلت نوعية الهدايا ومحتوياتها على طبيعة العلاقة بين الدولة الأموية في الأندلس بغيرها، مثل الهدايا المتبادلة مع الدولة البيزنطية، ومع الممالك الأسبانية في شمال الأندلس، ومع أمراء بلاد المغرب، أي أن للهدايا المتبادلة دلالات خاصة ومعاني مقصودة، أحيانًا تدل على المودة والصداقة، وأحيانًا تدل على التهديد والوعيد وإظهار القوة.

أيضا نوعية الهدايا كانت تعبيرًا عن روح العصر وطبيعة الحكام واهتماماتهم، مثل الهدايا التي تلقاها الخليفة عبد الرحمن الناصر من الإمبراطور البيزنطي قسطنطين السابع، والتي اشتملت على كتب علمية مهمة أسهمت في النهضة العلمية

---

[١] ابن حيان: المقتبس، السفر الخامس، ص٤٨٦-٤٨٧.

في الأندلس، والهدايا المقدمة من الخليفة الحكم المستنصر لاردنيو الرابع الليوني الوافد على بلاط قرطبة، طالبًا العون لاسترداد عرشه، والتي اشتملت على بعض الأسلحة والمعدات الحربية، مما يوحي بقوة الأندلس وتفوقها على الممالك الأسبانية خلال هذه الفترة.

حرص بعض كبار رجال الدولة على تقديم الهدايا للأمويين في المناسبات المختلفة، وأحيانًا كانوا يبالغون في هذه الهدايا لدرجة تثير التساؤلات، مثل هدية ابن شُهيد للخليفة عبد الرحمن الناصر، والتي وصفت بأنها أعظم هدية قدمت في تاريخ الأندلس، وهدية جعفر المصحفي للخليفة الحكم المستنصر، ومثلهما هدايا محمد بن أبي عامر للسيدة صبح في بداية حياته العملية داخل القصر، وإن كانت لا تخفى الأهداف المستترة وراء تقديم مثل هذه الهدايا.

لعبت الهدايا دورًا حضاريًّا مهمًّا في الأندلس تمثل في دخول كتب جديدة أصبحت مصادر أصيلة لعلماء الأندلس في تخصصهم الدقيق، مثل كتب ديسقوريدس وهروشيش، كذلك تطور فن البناء الزخرفة الأندلسي نتيجة تأثره بالفن البيزنطي، مما يدل على تأثر الحضارة الأندلسية بالحضارة اللاتينية.

كما دلت الهدايا على تقدم ورقي صناعة الطراز والملابس في الأندلس من خلال الهدايا المقدمة من الأمراء والخلفاء الأمويين إلى الوفود التي كانت ترد إلى بلاطهم، والتي كانت تشتمل على الملابس المختلفة الطراز والحلي والزخارف العربية البراقة، أي أن الهدايا كانت لها دلالات اقتصادية واجتماعية كبيرة يمكن من خلالها فهم المظاهر الحضارية للدولة، وكذلك العلاقات بين الدول.

المصادر والمراجع

أولا: المصادر:

- ابن الآبار: الحلة السيراء، ترجمة حسين مؤنس، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٨٥.
- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، تحقيق، محمد يوسف الدقاق، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٧.
- أحمد بن محمد بن على الفيومي المقرىء: المصباح المنير، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٨٧.
- الإدريسي: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ٢٠٠٢.
- : صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس، مأخوذة من نزهة كتاب المشتاق، ليدن، ١٨٦٣.
- الأصفهاني: أبو القاسم الحسين بن محمد ت ٥٠٢هـ : المفردات في غريب القرآن، مكتبة نزار مصطفى الباز، تحقيق، مركز الدراسات بمكتبة نزار مصطفى الباز.
- ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، نشر، نزار رضا ، دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان،
- البخاري: الأدب المفرد، تحقيق وتعليق، محمد فؤاد عبد الباقي، المطبعة السلفية، القاهرة، ١٣٧٥هـ
- ابن البيطار: أبو محمد عبد الله بن أحمد بن محمد ت ٦٤٦هـ/١٢٤٨م): تفسير كتاب دياسقوريدوس، تحقيق، إبراهيم بن مراد، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٩٨٩م.
- ابن الفراء: كتاب رسل الملوك ومن يصلح للرسالة والسفارة، تحقيق، صلاح الدين المنجد، دار الكتاب الجديد، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٩٩٣.
- ابن جلجل: طبقات الأطباء والحكماء، تحقيق، فؤاد سيد، دار الكتب، القاهرة، ١٩٥٥.
- ابن حيان: المقتبس السفر الخامس، تحقيق، شالميتا، المعهد الأسباني العربي للثقافة، كلية الآداب بالرباط، مدريد،١٩٧٩.

- ابن حيان: المقتبس في أخبار بلد الأندلس، تحقيق، عبد الرحمن على الحجي، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ١٩٨٣.
- ابن حيان: السفر الثاني من كتاب المقتبس، تحقيق، محمود مكي، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات، الرياض، الطبعة الأولى، ٢٠٠٣.
- ابن حيان: المقتبس في أخبار بلد الأندلس، تحقيق، صلاح الدين الهواري، المكتبة العصرية، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠٦.
- الحميدي: جذوة المقتبس، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٨.
- الحميري: صفة جزيرة الأندلس، دار الجيل، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٨.
- ابن الخطيب: تاريخ أسبانيا الإسلامية، أو أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام، تحقيق، بروفنسال، دار المكشوف، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية ١٩٥٦.
- ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ٢٠٠٧.
- ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون ، تحقيق، خليل شحاده ومراجعة سهيل زكار، دار الفكر العربي، بيروت،٢٠٠٠.
- ابن دحية: المطرب من أشعار أهل المغرب، تحقيق، إبراهيم الإبياري وآخرون، دار العلم للجميع، بيروت، لبنان، بدون.
- ابن عذاري: البيان المغرب، تحقيق بشار عواد معروف وابنه محمود ، دار الغرب الإسلامي، تونس، الطبعة الأولى، ٢٠١٣.
- عبد الله الباروني: الأزهار الرياضية في أئمة ملوك الإباضية، مطبعة الأزهار البارونية، الجزائر، بدون.
- عبد الواحد المراكشي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق، محمد سعيد العريان، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، ١٩٦٢.
-المقري: أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض، تحقيق، مصطفى السقا وآخرون، مطبعة لجنة والتأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٤٠.
-المقري: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق، إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٨٨.

- ثانيا: المراجع الحديثة:

- إبراهيم آل محمد مصطفى : سفارات الأندلس إلى ممالك أوربا المسيحية الكاثوليكية، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، الطبعة الأولى، ٢٠١٣.
- إبراهيم بيضون: تاريخ الدولة العربية في أسبانيا، دار النهضة العربية، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٩٨٦.
- إحسان عباس: تاريخ الأدب الأندلسي عصر سيادة قرطبة، دار الثقافة ، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٩٦٩.
- أحمد حامد المجالي: الصقالبة ودورهم السياسي والثقافي في الأندلس، رسالة دكتوراة، جامعة مؤتة، الأردن، ٢٠٠٨.
- أحمد مختار العبادي: تاريخ المغرب والأندلس، مؤسسة الثقافة الجامعية، الأسكندرية، بدون.
- أسد رستم: الروم في سياستهم وحضارتهم ودينهم وثقافتهم وصلتهم بالعرب، الجزء الثاني،دار الكشوف، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٩٥٦م.
- بابل ودي جينفنوا: مكتبة الأسكندرية فك طلاسم اللغز، ترجمة على إبراهيم منوفي، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ٢٠١٤.
- بالنثيا: تاريخ الفكر الأندلسي، ترجمة حسين مؤنس، المركز القومي للترجمة، القاهرة،٢٠١١.
- بروفنسال: تاريخ أسبانيا الإسلامية، ترجمة على إبراهيم منوفي وآخرون، المشروع القومي للترجمة، القاهرة، ٢٠٠٢، رقم ٣٢١.
- حضارة العرب في الأندلس، ترجمة ذوقان قرقوط، دار مكتبة الحياة، بيروت، بدون.
- جوزيف نسيم يوسف: تاريخ الدولة البيزنطية، دار المعرفة الجامعية، الأسكندرية، ٢٠٠٥.
- حسان حلاق: دراسات في تاريخ الحضارة الإسلامية، دار النهضة العربية، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٦٩.
- حسن نافعة وبوزورت : تراث الإسلام، ترجمة حسين مؤنس، عالم المعرفة، ١٩٩٨، الكويت.
- حسين مؤنس: تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس، مدبولي، القاهرة،الطبعة الثانية، ١٩٨٦.

- دوزي: المسلمون في الأندلس ، ترجمة، حسن حبشي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة،١٩٩٤م.
- سليمان الرحيلي: السفارات الإسلامية إلى الدولة البيزنطية، مكتبة التوبة، الرياض، ١٤١٤هـ
- السيد عبد العزيز سالم: قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس، مؤسسة شباب الجامعة، الأسكندرية ، ١٩٩٧.
- السيد عبد العزيز سالم: تاريخ المغرب في العصر الإسلامي، مؤسسة شباب الجامعة، الأسكندرية.
- عبد الرحمن الحجي: العلاقات الدبلوماسية بين الأندلس وبيزنطة، صحيفة المعهد المصري للدراسات الإسلامية في مدريد، العدد٢٢، سنة ١٩٨٤م.
- عبد الرحمن علي الحجي: العلاقات الدبلوماسية بين الأندلس وأوربا الغربية خلال عصر الدولة الأموية، المجمع الثقافي، أبو ظبي، الإمارات، ٢٠٠٤م.
- عمر فروخ : تاريخ الأدب العربي ، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، ١٩٨٤.
- على راضي: الأندلس والناصر، دار الكاتب العربي، القاهرة ١٩٦٧.
- فوزي القبوري: فقهاء الأندلس والمشروع العامري، دار كنوز إشبيليا، الرياض، الطبعة الأولى، ٢٠١٠.
- محمد صالح البنداق: يحيي بن الحكم الغزال، دار الآفاق الجديدة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٩.
- محمد ماهر حمادة: الوثائق السياسية والإدارية في الأندلس وشمالي إفريقية، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، ١٩٨٦.
- محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، مكتبة الأسرة ، القاهرة، ٢٠٠١.
- محمد عيسى الحريري: الدولة الرستمية بالمغرب الإسلامي، دار القلم، الكويت، الطبعة الثالثة، ١٩٨٧.
-جودت عبد الكريم يوسف: العلاقات الخارجية للدولة الرستمية المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، بدون.
- ميلود بن حاج: الصراع الإسلامي النورماني في الأندلس في عهد عبد الرحمن الأوسط، الجزائر ٢٠٠٨.

الدوريات العربية والرسائل:

- أحمد مختار العبادي: تاريخ الأندلس لابن الكردبوس ووصفه لابن الشباط نصان جديدان، صحيفة المعهد المصري للدراسات الإسلامية ، مدريد، المجلد الثالث عشر، ١٩٦٥-١٩٦٦.
- أحمد مختار العبادي: الإسلام في أرض الأندلس، مجلة عالم الفكر، المجلد العاشر، المجلد العاشر، العدد الثاني، ١٩٧٩.
- إكسبيراثيون غارثيا سانشيز: الزراعة في إسبانيا المسلمة، مقال في كتاب الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، الجزء الثاني، تحرير سلمي الجيوشي ،مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٩٩٨.
- حسين مؤنس: غزوات النورمانيين على الأندلس وسفارة يحيي الغزال إلى ملك النورمان، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، العدد الأول، المجلد الثاني، ١٩٥٠.
- حكمة على الأوسي: يحيي بن حكم الغزال، سفير الأندلس وشاعرها الواقعي، المجمع العلمي العراقي، بغداد، ١٩٧١.
- حمدي عبد المنعم حسين: فارس الأندلس غالب الناصري، مجلة كلية الآداب، جامعة الإسكندرية، العدد ٣٧، ١٩٨٩.
- رأفت عبد الحميد محمد: قواعد الدبلوماسية البيزنطية، مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، العدد ٣٣، القاهرة،
- رشيد عبد الله الجميلي: الرستميون في تاهرت، مجلة المؤرخ العربي، العدد ٣٤، ١٩٨٧.
- سحر السيد عبد العزيز سالم: دور الطراز في الأندلس في عصر دولة بني أمية.
- صالح أحمد العلي: تطور الحركة الفكرية في صدر الإسلام، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٣.

- عاصم البدري: يحيي الغزال الشاعر الاجتماعي الساخر، مجلة أفنان، العدد الرابع عشر، ١٤٢٩هـ، دار المنظومة.
- عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ): أبو مروان بن حيان القرطبي وتاريخ الأندلس، مجلة المناهل المغربية ندوة ابن حيان، العدد ٢٩، ١٩٨٤.
- عبادة عبد الرحمن كحيلة: كتاب التواريخ لباولوس أوروسيوس وترجمته الأندلسية، صحيفة المعهد المصري للدراسات الإسلامية، مدريد، العدد الثالث والعشرون، ١٩٨٥-١٩٨٦.
- عبد العزيز الأهواني: اللقاء الحضاري في الأندلس، المؤرخ العربي، العدد الخامس، العراق، ١٩٧٨.
- عبد القادر زمامة: يحيي بن حكم الغزال، مجلة المناهل المغربية، العدد الرابع، ١٩٧٥.
- محمد بن تاويت الطنجي: دولة الرستميين في تاهرت، صحيفة المعهد المصري للدراسات الإسلامية في مدريد، العدد الخامس، ١٩٥٧.
- منى عيد شعبان: النسيج واللباس في عصر الإمارة الأندلسية، كتاب الحضارة العربية الإسلامية في العصور الوسطى، منشورات اتحاد المؤرخين العرب، القاهرة ، ٢٠٠٠.
- وفاء المزروع: الخليفة الأموي الحكم المستنصر، رسالة ماجستير، جامعة أم القرى، كلية الشريعة، ١٩٨٣.
-يوسف حوالة: المرأة في البلاط الأموي في الأندلس، حولية كلية الآداب والعلوم الاجتماعية، العدد ٢٤،جامعة الملك عبد العزيز، المملكة العربية السعودية، ٢٠٠٤م.

المراجع والدوريات الأجنبية:

- Anthony Cutler: Gifts and Gift Exchange as Aspects of the Byzantine, Arab, and Related Economies, Dumbarton Oaks Papers, Vol. 55, 2001, http://www.jstor.org/stable/1291821
- Anthony Cutler: Gifts and Gift Exchange as Aspects of the Byzantine, Arab, and Related Economies, p 247.
- Joaquin Guichot: Historia de Andalucia ,tomo11, Madrid, 1869, pp220-225

M . Florian: History of the Moors spain ,New York,franklin square , 1852,p 64-65

- Francisco Codera:Embajadores de Castilla encarcelados en Córdoba en los últimos años de Alhaquem I1, Boletín de la Real Academia de la Historia.Madrid, Tomo 14, Año 1889,p 187-193.

Francisco Pons Boigues : Ensayo Bio-Bibliografico sobre los Historiadores Y Geografos Arabico –Espanoles, , Madrid, 1898, p 111-113.